نموذج ترخيص

أنا الطالب : مجدي سليمان رزق جبر

أمنح الجامعة الأردنية و / أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو استغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونية أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها.

نظام الملك دراسة موضوعية في القصص القرآني

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليمية والجامعات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميع أو بعض ما رخصته لها.

الطالب : مجدي سليمان جبر

التوقيع :

التاريخ : ١٣/٧/٢٠١٥م

نظام المُلك دراسة موضوعيّة في القصص القرآني

إعداد

مجدي سليمان رزق جبر

المشرف

الأستاذ الدكتور أحمد شكري شابسوغ

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنيّة

تموز ٢٠١٥

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (نظام المُلك دراسة موضوعية في القصص القرآني) وأجيزت بتاريخ : ٧ / ٧ / ٢٠١٥م.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور أحمد خالد شكري شابسوغ	مشرفاً ....
أستاذ – التفسير وعلوم القرآن	
الدكتور أحمد اسماعيل نوفل	عضواً ....
أستاذ مشارك – التفسير وعلوم القرآن	
الدكتور سليمان محمد الدقور	عضواً ....
أستاذ مشارك – التفسير وعلوم القرآن	
الدكتور علي عبد الله علان	عضواً خارجياً ....
أستاذ مساعد – التفسير وعلوم القرآن	
جامعة البلقاء	

الإهداء

إلى أمي الغالية، أطال الله تعالى في عمرها، وأمدها بالصحة والعافية

إلى زوجتي الحبيبة التي ساندتني وأعانتني حتى أنهيت رسالتي

إلى كل أهل القرآن المخلصين

إليهم جميعا أهدي هذه الدراسة، راجيا من الله القبول

الشكر والتقدير

لأستاذي وشيخي فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد شكري شابسوغ بالإشراف على هذه الرسالة، والإفادة والإثراء بدقيق ملاحظاته، وأخلصِ توجيهاته، فجزاه الله عني وعن الإسلام خيرا، وكذلك لا يسعني إلا أن أشكر الدكتور مصطفى المشني على موافقته ابتداء على الإشراف على رسالتي، وقدّر الله تعالى أن لا يستمر في ذلك لظروف خاصة ألمّت به.

كما أشكر الأساتذة الأفاضل الذين تفضّلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة :

الدكتور علي علان

الدكتور أحمد نوفل

الدكتور سليمان الدقور

وأتقدم بالشكر أيضا إلى كل أساتذتي، وكل من له فضل علي، ومن مدّ يد العون إلي في إخراج هذه الرسالة، وتدقيقها، وإبداء الملاحظات والنصائح عليها.

واللهَ أسألُ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يتقبّله مني، إنه سميع قريب، مجيب الدعاء.

قائمة المحتويات

نظام المُلك دراسة موضوعية في القصص القرآني

إعداد
مجدي سليمان رزق جبر

المشرف
الأستاذ الدكتور أحمد شكري شابسوغ

الملخص

تتناول هذه الرسالة دراسة " نظام الملك في القصص القرآني" دراسة موضوعيّة؛ وتتتبع المنهج الذي سلكه القرآن في تصويره لهذا النظام، وتبيّن تلك الأركان التي يتألف منها نظام المُلك كمؤسسة حكم متكاملة ، لا تقوم إلا على وجودها، فهي أساس لقيامها، وضمان لاستمرارها، ثم تذكر الرسالة تلك النماذج التي ضربت وذكرت عنه في القرآن، ومظاهر صلاحها وفسادها، ثمّ تخلص أخيراً إلى أهم النتائج والتوصيات.

المقدّمة

إنّ الحمد لله تعالى، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل، فلن تجد له وليّا مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا.

أمّا بعد :

فالناظر للمجتمع الانساني يرى بوضوح أنه لا تنتظم شؤونه، ولا تؤدى فيه الحقوق بين العباد إلا بنظام تترتب فيه هذه الحقوق والواجبات، وهذا النظام ليس فقط لوائح وقوانين، بل لابد له من مؤسسة متكاملة تقوم على تطبيقه وإقامة حدوده على أرض الواقع، فكان لابد من وجود نظام متكامل للملك بجميع مؤسساته، حتى يتكامل المجتمع الإنساني بجميع هيئاته، ويأخذ فيه كل ذي حق حقه.

لذلك سيتناول الباحث دراسة موضوع نظام الملك في القرآن، لاستخراج صوره، وما جاء فيها من نماذج واقعيّة، تتكرر في الواقع البشري في كلّ زمان، وللإحاطة بتلك الصفات السلبية والإيجابية التي يمكن أن توافرها في مثل هذا النظام، حتى يتضح لكل ذي لبٍّ ماهيّة ذلك النظام الذي يصلح لقيادة المجتمع، وإقامة العدل بين أفراده، والوصول به إلى بر الأمان.

مشكلة الدراسة:

وقد جعلت هذه الإشكالية في دراستي تكمن عبر تساؤلات عدّة؛ منها :

١- ما هي النماذج التي ذكرها القرآن عن نظام المُلك والحكم وأركانه ؟

٢- ما هي أركان هذا النظام في القرآن ؟

٣- ما هو المنهج الذي سلكه القرآن في تصويره لنظام المُلك ؟

أهمية الدراسة:

تتناول هذه الدراسة صور نظام الملك والحكم في كتاب الله تعالى ، وتبيّن تلك الأركان التي يتألف منها نظام المُلك، وتذكر النماذج التي ضربت وذكرت عن نظام المُلك والحكم في القرآن.

وعليه فإنّ أهمّية هذه الدراسة تكمن في :

١- توضيح حاجة العمران البشري لسياسة ينتظم بها أمره.

٢- التأكيد على أنّ الملّة الإسلامية لابد لها من قائم بها يطبق شرعها ويحفظ حدودها بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

٣- التأكيد على أنّ ثروات ومقدّرات الأمة الإسلاميّة بحاجة إلى حمايتها ومن يحافظ عليها ويعدل في آلية توزيعها.

ولهذا كلّه؛ كان لابد من وجود القائد المتمثّل ب (الملك / الأمير / الخليفة / السلطان/ كبير القوم وسيدهم وقائدهم) ونظام مُلكه وحكمه، حتى تنهض الأمّة بأعبائها.

أهداف الدراسة:

تحرص هذه الدراسة على تحقيق جملة من الأهداف :

١- محاولة الإلمام بمقاصد القرآن في هذا الموضوع (نظام المُلك) من جميع أركانه.

٢- دراسة النماذج القرآنية التي ضربت كأمثلة على صفة القادة والملوك للإفادة منها على أرض الواقع.

٣- إظهار القاسم المشترك بين أركان – أطراف – القيادة الفاسدة – كما يصوّره القرآن.

الدراسات السابقة :

١- كتاب (فرعون والطغيان السياسي) لأحمد بهجت / دار العصر الحديث / الطبعة الاولى سنة ١٩٨٨، ويتكلّم المؤلف فيه عن كل أفعال وأقوال فرعون على وجه التحديد، وبمعنى آخر، قدّمه على أنّه القصّة الكاملة للطاغية فرعون، هذا وإن اتصل بدراستي، فهو لا يتطرق إليه إلا من جهة نموذج واحد لا غير.

٢- كتاب (بدائع السلك في طبائع الملك) الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م/ بيت الحكمة/ تحقيق محمد جاسم الحديثي، تأليف أبي عبد الله ابن الأزرق، قاضي غرناطة ووزيرها وسفيرها في أيامها الأخيرة، لخص فيه ما يتصل بموضوع كتابه في مقدمة ابن خلدون وغيرها من كتب تدبير الملك، مع زيادات كثيرة. إلا أنه غالباً ما يكتفي بكلام ابن خلدون، ولم يتصل كلامه عن نظام المُلك والحكم كما صوّره القرآن ، بل هو كتاب تأريخ لتلك الحقبة.

٣- كتاب (شخصية فرعون في القرآن) للطالب: قاسم توفيق قاسم خضر، رسالة قدّمت استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في التفسير بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس- فلسطين ١٤٢٣هـ الموافق٢٠٠٣م، و نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ ٢٠٠٣/٧/٢٠م وأُجيزت، وكان المشرف عليها الدكتور: محسن الخالدي، فهي تتكلم عن عرض مجمل لقصة موسى – عليه السلام – وفرعون ،ولم تتطرق للحديث عن نظام المُلك والحكم وقيادته ولا عن نماذجه الأخرى.

٤- (القرآن والسلطان هموم إسلامية معاصرة) لفهمي الهويدي / دار الشروق / الطبعة السادسة سنة ٢٠٠٦، ولم يتطرق المؤلف لموضوع رسالتي لا من قريب ولا من بعيد من حيث النظرة القرآنية لأركان نظام المُلك والحكم ونماذجه، بل جاء هذا الكتاب كردّة فعل على ما يجري في الساحة عقب الثورة الخمينيّة واغترار البعض بها.

٥- وكذلك الحال بالنسبة لموضوع الدراسة في كتاب (منهج الحكم في الإسلام) لمحمد البنا ، وكتاب (نظام الحكم في الإسلام) لمنصور الرفاعي ، فموضوع الدراسة فيهما ليس من قبيل الدراسة الموضوعية للقرآن ، ولا تتناول أركان نظام المُلك والحكم في القرآن ولا نماذجه.

٦- أمّا الدراسة التي بعنوان (القيادة في ضوء القرآن الكريم) للأستاذ الدكتور عبد الوهاب إسماعيل الأعظمي المدرّس في كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد، وهي تقع في (٦٥) صفحة فقط، لم تعرّج هذه الدراسة على ذكر أركان نظام الحكم والقيادة وتأثير ذلك على الحكم، ولا أتت على ذكر النماذج عليها، ولم تتناول جميع نماذج القيادة المذكورة في القرآن، بل اقتصر الباحث فيها على ذكر القيادة في الكتاب والسنة، وأهميتها ومؤهلاتها، وصفات القائد وواجباته .

ولم يتحدث عن البطانة بشقيها (العامّة والخاصة). والخلاصة أن هذه الدراسة بحث مختصر مقتضب لم يوف الموضوع حقّه ولا أركانه، وموضوع رسالتي يختلف جوهريّا مع هذه الدراسة من حيث الأهداف والموضوعات وشموليته لجميع النماذج في القصص القرآني.

٧- (المُلك في ضوء القرآن الكريم) للباحث أحمد زغلول عباس، وهي رسالة ماجستير، نوقشت في كلية العلوم الإسلامية في جامعة المدينة العالمية في دولة ماليزيا سنة ٢٠١٣، وبعد الاطلاع على موضوع الرسالة ومحتواها، وجدت أن الباحث قصر رسالته على الشخصية الاعتبارية (للمَلك) ولم يشر إلى أركان المُلك الأخرى ولا إلى دورها وتأثيرها في الحكم وإرساء دعائمه، بل ركّز الباحث على مركزيّة المَلك، وأناط به جميع نظام المُلك، ولم يشر إلى دور البطانة بشقيها (العام والخاص) أو الجند في الحكم، وأغفل المرور على جميع النماذج القرآنية في القصص القرآني التي تتكلم عن القادة والملوك ، ولم يتطرق إلا إلى نموذجين فقط، وهذا واضح من خلال النظر إلى أنّه لم يتكلم إلا عن الشخصية الاعتبارية (للمَلك)، ورأيته قد قصر بحثه في فصوله وأبوابه على : (المُلك والاغترار به / الملك والقيادة العسكرية- باعتباره قائد عسكري-/ من جمع بين المُلك والنبوة/ الملك الراشد/ الملك الفاسد / مهمات الملك / آثاره)، وبذلك يتضح الأمر في أن رسالتي تختلف عن هذه الرسالة - جوهرياً- ، في أن موضوع بحثي قد تناول موضوع نظام المُلك باعتباره مؤسسة متكاملة الأطراف والأركان في إرساء دعائم نظام المُلك وإيقاع أثره على أرض الواقع.

أمّا الدراسة التي سأشرع بها – بإذن الله تعالى – فهي دراسة مستفيضة لجميع أركان نظام المُلك والحكم التي ذكرها القرآن كمؤسسة كاملة، وما جاء فيها من نماذج ، مع تحليل للنصوص، وبيان القواسم المشتركة في فساد هذه الأركان كما في الأمثلة والنماذج التي أذكرها.

منهج البحث:

إنّ المنهج الذي سأتبعه في هذه الدراسة هو :

١) المنهج الاستقرائي : حيث قمت باستقراء جميع المواضع في القرآن التي ذكرت الملوك وأنظمتهم ، واستخراج النماذج التي ضربت للتدليل على عدل أو فساد ذلك الملك.

٢) المنهج التحليلي : وذلك بتحليل المواضع القرآنية، والنماذج المستخرجة للوقوف على أسباب نجاحها أو فشلها كما بيّنها القرآن.

٣) المنهج الاستنتاجي : ويكون باستنتاج الآثار والثمار المترتّبة من تحليل تلك المواضع ، ومقدار تفعيل ذلك على أرض الواقع.

وحتى يتضح للقارئ موضوع ومحتويات هذا البحث ، فإن طبيعة هذه الدراسة تقتضي أن تكون خطتها من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة على النحو الآتي :

الفصل الأول :المَلك (الركن الأول من أركان نظام المُلك والحكم)

المبحث الأول : أنواع المُلك التي ذكرت في القرآن.

المطلب الأول : الملك الوراثي.

المطلب الثاني : الملك الانتقائي.

المبحث الثاني : عمل المَلك (وظيفته).

المبحث الثالث : نماذج على عدل الملوك، مع بيان أهم صفاتهم.

المطلب الأول : الملك طالوت.

المطلب الثاني : النبيّ الملك داود عليه السلام.

المطلب الثالث : النبي الملك سليمان عليه السلام.

المطلب الرابع : الملك الصالح ذو القرنين.

المطلب الخامس : الملك في سورة يوسف.

المطلب السادس : ملكة سبأ.

المطلب السابع : نبي الله يوسف عليه السلام.

المبحث الرابع : نماذج على فساد المَلك، مع ذكر أهم مظاهر طغيانه وأسباب فساده

المطلب الأول : المفسد الكبير فرعون مصر.

المطلب الثاني : الملك المتجبّر جالوت.

المطلب الثالث : الملك الذي حاجّ إبراهيم في ربّه

التمهيد

قامت دولة الإسلام منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم على أسس وقواعد شرعيّة، ترتّبت على وفقها الأولويّات في المجتمع الإسلامي، فكان نظام المجتمع قائما على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فمصدر كل تشريع وقانون وأمر ونهي في تلك الحقبة هو الوحي الربّاني، فكانت تلك الفترة الحاسمة من عمر الإسلام تشكّل النواة الأولى لنظام حقيقيّ، يقوم على أساس شرعيّ، يأمر بالعدل والإحسان في كلّ شؤونه.

فكم عانت البشريّة قبل مجيء الإسلام من أنظمةِ حكمٍ ظالمة قمعيّة، تقوم على استعباد العباد، وتسخير طاقاتهم لخدمة رأس النظام.

فجاء الإسلام بنظام عالميٍ جديد – إن صح التعبير-، يقيم دولة الحقِ، ويعطي كلَّ ذي حقٍ حقَّه.

لذلك كان لابد من العناية بدراسة هذا النظام الحاكم، والاطلاع على تلك النماذج التي ضربها الله عزّ وجلّ مثلاً في القرآن، للتنبيه على أهم مظاهر فسادها أو صلاحها، وأثر ذلك على الواقع، وللخروج بأهمّ ما يميّز تلك الأنظمة المذكورة في القرآن من صفات إيجابيّة، وما يؤخذ عليها من سلبيات.

ومفهوم (النظام) تطوّر مع تطوّر الأنظمة، واتساع المجتمعات، وارتباط بعضها ببعض، فكان لابد من فهم معنى كلمة (النظام) لغة واصطلاحا، حتى يتّضح المعنى المراد من محتوى هذه الرسالة.

تعريف النظام :

لغة : يقول ابن فارس : "(نظم) النون والظاء والميم: أصلٌ يدلُّ على تأليف شيءٍ وتأليفه"[١].

ويقول ابن منظور : "(نظم) ... ونظَمْتُ اللؤْلؤَ أي جمعته في السِّلْك والتنظيمُ مثله ومنه نَظَمْتُ الشِّعر ونَظَّمْته ونَظَمَ الأَمرَ على المثَل وكلُّ شيء قَرَنْتَه بآخر أو ضَمَمْتَ بعضَه إلى بعض فقد نَظَمَتْه ...وكلُّ شعبةٍ منه وأَصْلٍ نِظامٌ ونِظامُ كل أَمر مِلاكُه والجمع أَنْظِمة وأَناظيمُ ونُظُمٌ ...حتى يقال ليس لأمره نِظامٌ أي لا تستقيم طريقتُه ...والانْتِظام الاتِّساق ... وما زالَ على نِظامٍ واحد أي عادةٍ وتَناظَمتِ الصُّخورُ تلاصَقَت"[٢].

ولو تأمّلنا في المعنى اللغوي، لوجدنا أنه يحمل معنى التآلف، والتناغم، والاستقامة، والتلاصق على نسق وعادة واحدة.

---

[١]- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (ج٥/ ص٤٤٣/ مادة : ن ظ م).

[٢]- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، (ج١٢/ص ٥٧٨).

وهذا الوصف اللغوي الدقيق لمعنى النظام، يبيّن في المقابل أنّ أيّ اختلال في هذا التآلف بين أيّ عناصر فيه، قد يؤدي إلى الاختلاف والفوضى.

أمّا بالنسبة للاصطلاح، فيعد هذا اللفظ عصريّا في الاصطلاح على معناه، إذ لم يرد عند أهل العلم قديما أي تعريف اصطلاحيّ له، بل جلّ ما ورد عنهم فيه هو المعنى اللغوى وما يقتضيه من مفردات، كما أشرت لذلك عند ابن فارس وابن منظور.

هذا أحد التعريفات الحديثة الاصطلاحيّة للنظام، والتي تتفق في جملتها على بعض المفردات :

"هي مجموعة التشريعات والقوانين والتنظيمات التي تنظم جميع شؤون الحياة عقدياً وسياسياً واقتصادياً وتعليمياً وغير ذلك. أو هي المبادئ والتعاليم التي تسير عليها أمة من الأمم في السياسة وفي الاقتصاد وفي الإدارة والتعليم"[١].

إذا هي قوانين متناغمة فيما بينها، تؤدي في النهاية إلى استقامة المجتمع على نسق واحد، ومنع أيّ اختلال أو اختلاف أو فوضى قد تظهر بين أفراده.

وهذه القوانين لابد لها من جهة تتولى وضعها، وترتيبها، والقيام على تطبيقها، ومراقبة ذلك في المجتمع، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى (مؤسسة المُلك) في المجتمعات البشريّة، القائمة على مجموعة أفراد، تتنوّع مهامّهم، وعلى رأس هرم هذه المجموعة يتربّع الملك والحاكم .

والمُلك في اللغة :

قال ابن فارس : "(ملك) الميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ في الشيء وصحة. يقال: أملَكَ عجِينَه: قوَّى عَجنَه وشَدَّه. وملّكتُ الشَّيءَ: قوّيتُه ... ثم قيلَ مَلَكَ الإنسانُ الشَّيء يملِكُه مَلْكاً. والاسم الملْك؛ لأنَّ يدَه فيه قويّةٌ صحيحة. ..."[٢].

ويقول ابن منظور : "...والمُلْكُ معروف وهو يذكر ويؤنث كالسُّلْطان ومُلْكُ الله تعالى ومَلَكُوته سلطانه وعظمته ولفلان مَلَكُوتُ العراق أي عزه وسلطانه ... والاسم المُلْكُ والموضع مَمْلَكَةٌ وتَمَلَّكه أي مَلَكه قهراً ومَلَّكَ القومُ فلاناً على أَنفسهم وأَمْلَكُوه صَيَّروه مَلِكاً ... والمَمْلَكة سلطانُ المَلِك في رعيته ويقال طالت مَمْلَكَتُه وساءت مَمْلَكَتُه وحَسُنَت مَمْلَكَتُه وعَظُم مُلِكه وكَثُر مُلِكُه ... والمِلْك احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به ..."[٣].

وهو بذلك حمل المعنى اللغويّ لكلمة (الملك) على قوّة اليد فيه – احتواء جميع ما فيه تملّكا- والقدرة على الاستبداد به.

وأمّا في الاصطلاح :

---

[١]- مطبقاني، مازن بن صلاح (رسالة جامعية) "النظام السياسي في الإسلام"، أستاذ مشارك، الدراسات الإسلامية-كلية التربية، جامعة الملك سعود.

[٢] - معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج٥/ص ٣٥١/ مادّة : ملك).

[٣] - لسان العرب (ج١٠/ص ٤٩١).

فأعرّج على كلام الراغب الأصفهاني، والذي لم أجد ما يقاربه في تصوّيُره لمعنى كلمة (المُلك)، حيث يقول : " المَلِكُ: هو المتصرّف بالأمر والنّهي في الجمهور، وذلك يختصّ بسياسة الناطقين، ولهذا يقال: مَلِكُ الناسِ، ولا يقال: مَلِك الأشياء..."[١].

إذا أردت أن أخرج بتعريف جامع لما سبق في معنى (المُلك)، فأقول : هو حيازة المُلك واحتواء جميع أفراده، بالقدرة على إطلاق اليد فيه، والتصرّف بالأمر والنهي في أمر الرعيّة.

ونخلص من ذلك كلّه بتعريف مصطلح (نظام المُلك) بأنّه : (تلك التشريعات والقوانين التي تسير على وفقها مؤسسة المُلك بجميع أركانها وهيئاتها بتناغم تامّ، للقيام بواجبها في رعاية مصالح البلاد والعباد، وإقامة العدل بينهم، والوقوف في وجه أي خطر يتهدد مصالحهم، سواء أكان داخليّا أو خارجيّا).

والمُلك المطلق لا يكون إلا لله تعالى، لذلك سمّى الله نفسه بالمَلك، فهو ملك يوم الدين، مالك الملك، ملك السماوات والأرض، المليك، بيده الملك والملكوت، يؤتي الملك وينزعه ممن يشاء، ملك الناس، الملك الحقّ، ذو العرش العظيم، مع ما سمّى ووصف به نفسه من صفات العزّة والكبرياء والعظمة التي تقتضيها ذاته العليّة، وكلّ صفاته حسنى.

والله عزّ وجل هو الغنيّ عن ذلك أجمع، ومع ذلك جعل له ملأ أعلى من الملائكة، فقال سبحانه حكاية على لسان نبيّه : ﴿ مَاكَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (ص: ٦٩)، قال ابن عباس : "هم أشراف الملائكة عليهم السلام"[٢]، وجعل لنفسه جنودا ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح:٤)، لا لحاجته إلى عونهم، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، ولكنه سبحانه يضرب للناس الأمثال، ويقرب إلى أذهان خلقه صورة المُلك وأركانه، حتى يتّضح للناس نظام الملك الصحيح بكامل أركانه، والتي لا يصلح المُلك بغيرها.

فهو سبحانه الذي خلق الكون بقدرته وعظمته، ولم يحتج في ذلك إلى أحد من خلقه، وجعله بنظام متناسق، فلا ترى في أنحاء الكون عوجا ولا اختلافا ولا فوضى، مع سعته وما يحتويه من خلق الله الذين لا يعلمهم إلا هو سبحانه، فقال تعالى مخبرا عن ذلك : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ

---

[١]- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد(المتوفى: ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، الطبعة الأولى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٤١٢ ه، (ص: ٧٧٤/ مادّة : ملك).

[٢]- الألوسي، محمود أبو الفضل (١٢٧٠ه)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (ج٢٣/ص ٦٩).

فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (الملك: ٣)، فجاء الوصف بكمال صنعة الله تعالى في خلقه عن العيب والخلل، وتفرّده بذلك، يقول سيد طنطاوي : " ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ ﴾ ولم يقل : ما ترى في السموات السبع من تفاوت ، للإشعار بأن هذا الخلق البديع ، هو ما اقتضته رحمته - تعالى - بعباده ، لكى تجرى أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم . . وللتنبيه - أيضا - على أن جميع مخلوقاته تسير على هذا النمط البديع في صنعها وإيجادها ، كما قال - تعالى - : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) وكما قال - سبحانه - :﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: ٧) " [١].

فوجود النظام - على الدوام – يمنع الاختلاف والفوضى، ويعالج أي خلل يطرأ هنا أو هناك، ناهيك عن الحاجة إلى من يراقب تطبيق الشرع، وإقامة الحدود، والأوامر والنواهي الشرعيّة، فكل ذلك مما لا يتم إلا عن طريق نظام صالح للملك، يدفع الله به الشرّ عن العباد، ويحفظ به الخير في البلاد.

لذلك أراد الباحث من خلال هذه الرسالة إظهار مواضع الصلاح والفساد والخلل في تلك الأنظمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وذلك عن طريق استقصاء جميع تلك النماذج التي ذكرت عن أنظمة المُلك وأركانها (المَلك، الملأ، الجند).

وهذا هو أوان الشروع في المقصود، والله تعالى من وراء القصد، والذي أسأله سبحانه أن يسددني في ذلك، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

[١]- طنطاوي، محمد سيد (١٤٣١ه)،التفسير الوسيط، الطبعة الأولى، الفجالة- القاهرة، دار النهضة، (ج١/ص: ٤٢٦٦).

الفصل الأول: المَلِك :

المبحث الأول : أنواع المُلك التي ذُكِرَت في القران.

المطلب الأول : المُلك الوراثي : ومثاله ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ (النمل: ١٦) .

والإرث لغة مِن "(ورث) الواو والراء والثاء: كَلمةٌ واحدة، هي الوِرْث. والميراث أصله الواو. وهو أن يكون الشّيءُ لقومٍ ثم يصيرُ إلى آخرين بنسبٍ أو سبب..."[١].

وهذا الذي ذكره ابن فارس أعم مِن المعنى الذي أورده أبو بكر الرازي بحصره إياه بالنسب دون السبب، حيث قال: " وَرِثَ أباه و وَرِثَ الشيء مِن أبيه يَرِثُه بكسر الراء فيهما وِرْثاً و وِرْثَةً و وِرَاثَةً بكسر الواو في الثلاثة و إرْثا بكسر الهمزة و أَوْرَثَه أبوه الشيء و وَرَّثَهُ إياه و وَرَّثَ فلان فلانا تَوْرِيثاً أدخله في ماله على ورثته" [٢].

وكذلك الحال مع ابن منظور في تعريفه لورث، فقد حدا ابن منظور حدو أبي بكر الرازي من قبله فقال : "وَرِثَهُ مالَهُ ومَجْدَهُ وَوَرِثَه عنه وِرْثاً وَرِثَةً وَوِراثَةً وإِراثَةً، أَبو زيد: وَرِثَ فلانٌ أَباه يَرِثُهُ وِراثَةً ومِيراثاً ومَيراثاً وأَوْرَثَ الرجلُ وَلَدَهُ مالاً إِيراثاً حَسَناً ويقال وَرِثْتُ فلاناً مالاً أَرِثُه وِرْثاً وَوَرْثاً إذا ماتَ مُوَرِّثُكَ فصار ميراثه لك وقال الله تعالى إخباراً عن زكريا ودعائه إِيّاه﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ ﴾ (مريم)، أَي يبقى بعدي فيصير له ميراثي، قال ابن سيده: إِنما أَراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة ولا يجوز أَن يكون خاف أَن يَرِثَهُ أَقرِباؤُه المالَ لقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إِنَّا معاشرَ الأَنبياءِ لا نُورثُ ما تركنا فهو صدقة"[٣]، وقوله عز جل:

---

[١] - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (ج٦/ص ١٠٥/ مادة: و ر ث).

[٢] - محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة ١٤١٥ - ١٩٩٥،(ص: ٧٤٠/ مادة ورث).

[٣] - رواه :

١) النسائي، أحمد بن شعيب (٣٠٣ه)، سنن النسائي الكبرى، الطبعة الأولى، تحقيق :عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت سنة١٤١١– ١٩٩١،(ج٤/ص ٦٤).

٢) والطبراني، سليمان بن أحمد (٣٦٠)ه، المعجم الأوسط، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥، (ج٥/ص ٢٦)، ولم يذكرا فيه حكم الحديث =

(وورث سليمان داود)، قال الزجاج: جاء في التفسير أَنه ورَّثهُ نُبوَّتَه ومُلْكَه. ... وتقول وَرِثْتُ أَبي وَوَرِثْتُ الشيءَ من أَبي أَرِثُه بالكسر فيهما وِرْثاً وَوِراثَةً وإِرْثا..." [١] .

وكما لا يخفى أن أسباب الميراث ثلاثة (نكاح وولاء ونسب)، وقد جمع ابن فارس ذلك في تعريفه، فكان جامعا مانعا ، يقول صاحب منظومة الرحبية :

أسبابُ ميراثِ الوَرَى ثَلاثَةْ *** كُلٌّ يُفِيدُ رَبَّهُ الوِراثَةْ

وهْي نكاحٌ وَوَلاءٌ ونَسَبْ *** ما بَعْدَهُنَّ للمواريثِ سَبَبْ [٢]

والنكاح والنسب معروفان، أما الولاء فهي تلك العلاقة التي تنشأ بسبب الإعتاق، فيرتبط المعتِق -بالكسر- والمعتَق -بالفتح بعلاقة تكون سببا في الإرث ممتدا حتى في قرابتهما ، وهذا مطروق في بابه في كتب الفقه لمن أراد الاستزادة[٣] .

وسليمان من نسل داود عليهما السلام، فهو ابنه وهبة الله تعالى إليه، ولم يثبت في نقل صحيح أن له ابناً آخر سواه - كما سيأتي تفصيل ذلك - ، فانتقال الملك من داود إلى سليمان عليهما السلام، انتقال استحقاقي، ووراثي في آن واحد.

وللعلماء من أهل التفسير في ذلك مذاهب وأقوال :

١- فمنهم من قال انه إرث العلم والنبوة ، كالواحدي والشوكاني وصاحب المنار والظلال وأضواء البيان وابن عاشور[٤] ؛ واستدلوا على ذلك بما يلي:

١) بما جاء في الرواية الإسرائيلية أنه كان له تسعة عشر ولداً ذكراً، فما كان ليرثه سليمان في المال دون إخوته[٥].

= ٣) ابن حنبل، أحمد (٢٤١ه)، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثانية ، سنة ٢٠٠٨م، (ج١٦/ص٤٧/رقم٩٩٧٢)، بزيادة (ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي) وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[١] - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، (ج٢/ص ١٩٩).

[٢] - محمد بن علي بن محمد بن الحسن الرحب(٥٧٧ه)، الرحبية في علم الفرائض بشرح المارديني وحاشية البقري، دار القلم-دمشق، الطبعة الثامنة سنة ١٤١٩-١٩٩٨م، (ص: ٣١-٣٢).

[٣] - ابن قدامة، عبد الله بن أحمد (٦٢٠ه)المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الطبعة الأولى، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٥، (ج٧/ص ٢٣٨).

[٤] - الشوكاني، محمد بن علي ،(١٢٥٠ه) فتح القدير، دار المعرفة، الطبعة الرابعة سنة ١٤٢٨-٢٠٠٧م (ج٤/ص ١٨٥).

[٥] - انظر: =

٢) وبما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنّه قال : "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة"[١] " واستشهد به الرازي[٢] وغيره.
٣) وبما أورده وانفرد به صاحب التحرير والتنوير من أنّ داود عليه السلام استخلف سليمان عليه السلام حال حياته على حكم بني إسرائيل، فتمّ له الملك في حياة أبيه، وإنما انتقلت له النبوة وعلم الكتاب بعد موت أبيه، ولم أجد أحدا قال بهذا غير ابن عاشور![٣].
٤) أنّ ما أوتيه سليمان من منطق الطير ومن ملك كل شيء، إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم من عند الله تعالى، وهذا هو رأي سيد قطب[٤].

٢- ومنهم من قال إنّه إرث النبوة والملك (ووراثة الملك يتضمن بطبيعة الحال انتقال السلطة والمال) ، وهم جلُّ المفسرين: كالبغوي[٥] والزمخشري[٦] وابن عطية وابن الجوزي[٧] والفخر الرازي :

=١)الواحدي،علي بن أحمد ،(٤٦٨ه) التفسير البسيط، جامعة الإمام محمد بن سعود في المملكة السعودية، رسائل جامعية، تحقيق د.سليمان بن إبراهيم الحصين، طبعة سنة ١٤٣٠، (ج١٧/ص ١٨١).

٢) فتح القدير(١٩/ ١٠٧٤) وغيرهما من المفسرين.

[١] - مسند أحمد (ج١٦/ص ٤٧/رقم٩٩٧٢).

[٢] - الرازي، فخر الدين (٦٠٦ه) مفاتيح الغيب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م (٩/ ١٧٠). و الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت – لبنان،١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ مـ (ج٣/ص ٣٦٣).

[٣] - ابن عاشور، محمد الطاهر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، التحرير والتنوير ، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان (ج١٠/ص٣٣٢).

[٤] - سيد قطب،(١٤٢٥-٢٠٠٤م)،في ظلال القران، الطبعة الرابعة والثلاثون، القاهرة-دار الشروق،(ج٥/ص٢٦٣٣).

[٥] - البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (٥١٦ هـ) معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م (ج٦/ص ١٤٨).

[٦] - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (٥٣٨ه)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج٣/ص ٣٥٨).

[٧] - ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (٥٩٧ه)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ه (ج٦/ص ١٥٩).

الذي- الرازي- نقل قول ابن الأنباري :(يقال : ورث فلان علم فلان إذا انفرد به بعد أن كان مشاركا فيه ، وقال تعالى : {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ } (النمل : ١٦) وكان المعنى انفراده بذلك الأمر بعد أن كان داود مشاركاً له فيه وغالبا عليه)[١].

وقال ابن عطية:(" داود " من بني إسرائيل وكان ملكا " وورث سليمان " ملكه ومنزلته من النبوءة بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثا تجوزا وهذا نحو قولهم (العلماء ورثة الأنبياء)[٢] وحقيقة الميراث في المال والأنبياء لا تورث أموالهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" ويحتمل قوله عليه السلام (إنا معشر الأنبياء لا نورث) أن يريد به أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم وإن كان فيهم مَن ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه وهذا كما تقول إنا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة فالمراد أن ذلك فيه فعل الأكثر)[٣] .

وقال أيضا: (والأكثر من المفسرين على أنه أراد وراثة المال ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم إنا معشر الأنبياء لا نورث أن لا يريد به العموم بل على أنه غالب أمرهم فتأمله...)[٤] .

القول الثاني قول جمهور المفسرين، وهو ما أميل اليه، لظاهر لفظ الآية بوراثة سليمان لداود عليهما السلام، فإن القران ذكر أن داود كان ملكا نبيا، ثم ذكر أن سليمان كان من بعده ملكا نبيا كذلك ، فتَمَّت مطابقة حال سليمان لحال أبيه في الملك والنبوة ، فكان هو المعنى المراد من الإرث في الآية.

وأما قول الفريق الأول بأنه إرث العلم والنبوة فقط دون الملك، فهو متعقب لأن جلُّ الآيات التي تحدثت بعد ذكر الميراث إنما تحدثت عن حال ملك سليمان من بعد داود.

ووراثة الملك (لِمَن قال به من المفسرين) هي صورة من صور وراثة المال، أو انتقال ما كان في يد الموروث حال حياته لغيره بعد موته، وإلا فداود عليه السلام قبل أن يؤتيه الله تعالى الملك ،

---

[١] - مفاتيح الغيب (ج٩/ص ٩٤).

[٢] - جزء من حديث نبوي، ولا يعبر عنه بلفظ –قولهم!-: انظر ابن حبان، محمد بن حبان (٣٥٤ه)، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ - ١٩٩٣ (ج١/ص ٢٨٩)وقال شعيب الأرنؤوط عنه : حديث حسن.

[٣] - ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (٥٤١ه) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز الطبعة الأولى تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م (ج٤/ص ٣٠٢).

[٤] - المحرر الوجيز (ج٤/ص ٥).

كان من ضمن جنود طالوت المؤمنين، وهذه في الغالب صفة من لا مال له، فلما أوتي الملك والنبوة، لم يكن معه سواهما، ولم يثبت خلاف ذلك في دليل واحد صحيح صريح، فلما مات داود، ورثه وقام مقامه ابنه سليمان في ذلك أجمع (الملك والنبوة)، يقول البقاعي :" فقال : (وداود) أي أول من ملك ابنه من أنبياء بني إسرائيل "[١] ، والأصوب أنّه الأشهر؛ فإنه سبحانه لم يذكر في القرآن من ورّث الملك لابنه على الإطلاق إلا داود عندما ورّث ابنه سليمان عليهما السلام.

ومع ذلك لا أدري لم فَرَّقَ من فَرَّقَ من المفسرين بين وراثة الملك ووراثة المال؟!، بل إني رأيتُ أن جلهم قد اعتمد في هذا التفريق على أمرين اثنين :

١- قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إنّا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة"[٢] ، فخوفا من مخالفة الحديث قال من قال منهم إن الإرث المذكور في الآية لا يشمل المال، وأن الأنبياء يترفَّعون عن مثل ذلك ، مع أنه لم يثبت أصلا أن داود عليه السلام ترك من بعده شيئا غير ما وهبه الله تعالى إياه من الملك، وإلا فالنبوة ثابتة في حقه حيا وميتا لا تنفك بحال، وإنما ورث سليمان ذلك تفضُّلا من الله تعالى، مع أنَّ قول ابن عاشور - الذي سبق نقله عنه، وانفرد به - ذكر أن داود استخلف سليمان على حكم بني إسرائيل حال حياته أو أنه كان مشاركا لداود في الحكم قبل موته، وكما قال ابن عطية : " وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوءة بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثا تجوُّزاً"[٣] .

٢- ما ذهبوا إليه من أن داود كان له تسعة عشر ولدا ذكرا- وهي الرواية الإسرائيلية الأكثر تداولا عند تفسير هذه الآيات للأسف-، فإن ذلك لم يثبت بنقل صحيح، ولا مستند له من الصحة، بل جاء في القرآن الكريم ما يبين أن النعمة بالهبة والذرية لداود إنما كانت في سليمان فقط، وبناء على ذلك، فالأظهر أنّه لم يكن لداود من الذرية - على الأقل فيما نعلم - إلا سليمان عليهما السلام، فمن الطبيعي أن يرث عنه.

وانتقال الملك وراثة من داود إلى سليمان عليهما السلام، ليس دليلاً على جواز توارث الملك في شرعنا، بل اجتمع الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم على أبي بكر الصدّيق كأوّل خليفة انتخب على مبدأ الشورى، ثم عهد بها إلى عمر من بعده، لأنه رآه الأنسب لذلك، ثمّ جعل عمر

---

[١] - البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر (٨٨٥ه) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م (٥ج/ص ١٠٠).
[٢] - مرَّ في حاشية ص (٣).
[٣] - المحرر الوجيز (ج٤/ص ٣٠٢).

الأمر شورى من بعده، فمبدأ انتقال الخلافة والملك في الإسلام قائم على نظام الشورى، ففعل الخلفاء الأربعة سنّة متّبعة كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني : الملك الانتقائي (الاصطفاء والإيتاء) :

أولا : الاصطفاء؛ وهو ما ورد في قوله تعالى في حق طالوت :" إن الله اصطفاه عليكم".

يقول ابن فارس في معنى الاصطفاء في اللغة :

"(صفو) الصاد والفاء والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلوصٍ من كل شَوب. من ذلك الصَّفاءُ، وهو ضدُّ الكَدَرِ؛ يقال صفا يصفو، إذا خَلص. يقال لكَ صَفْوُ هذا الأمرِ وصِفْوته. ومحمَّد صفوة الله تعالى وخِيرَتُه من خَلْقِه، ومُصْطفاهُ صلَّى الله عليه وآلهِ وسلّم. والصَّفِيُّ: ما اصطفاه الإمام من المَغْنم لنفسه، وقد يسمَّى بالهاء الصَّفِيَّة، والجمع الصَّفَايا. ...والصَّفِيَّة والصَّفِيّ، وهو بغير الهاء أشهر: النّاقةُ الكثيرة اللّبَن، والنَّخْلة الكثِيرةُ الحَمْل، والجمع الصَّفَايا. وإنَّما سُمِّيت صفيّاً لأنَّ صاحِبَها يصطفيها.

ومن الباب قولهم: أَصْفت الدَّجاجةُ، إذا انقطع بيضُها، إصفاءً. وذلك كأنَّها صَفَتْ أي خَلَصت من البَيْضِ...ومن الباب الصَّفَا، وهو الحجر الأَمْلَسُ، وهو الصَّفْوانُ، الواحدة صَفوانةٌ، وسمِّيت صفوانَةً لذلك؛ لأنَّها تَصْفُو من الطِّين والرَّمْل. ..ويقال يومٌ صفوانُ، إذا كان صافِيَ الشَّمسِ شديدَ البَرْدِ "[1].

ويقول ابن منظور: "... وصَفِيُّ الإنْسانِ أَخُوهُ الذي يُصافِيه الإخاءَ، والصّفِيُّ المُصافِي وأَصْفَيْتُه الوُدَّ أَخْلَصْته وصَافيتُه وتَصافَيْنا تخالَصْنا، وصافَى الرجلَ صَدَقَهُ الإخاءَ، وصَفِيُّكَ الذي يُصافِيكَ، والصَّفِيُّ الخالِصُ من كلِّ شيءٍ، واصْطفاه أَخذَه صفيّاً، ... صَفِيُّ الرجلِ الذي يصافِيهِ الوُدَّ ويُخْلِصُه له فَعِيلٌ بمعنى فاعلٍ أَو مفعول ..."[2].

- ونخلص من ذلك كله أن من معاني الاصطفاء :

١- خلاصة الشيء وأفضله.

٢- الخالص من كل كدر.

٣- كثير الخير والنفع.

[1] - معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج٣/ص ٢٩٢/ مادة: ص ف و).
[2] - لسان العرب (ج١٤/ص ٤٦٢).

وهذا واضح في الصفوة من خلق الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، فهم أفضل بني جنسهم على الإطلاق ، خلصوا من كدر الدنيا وزيفها، انتقاهم الله تعالى من بين جميع البشر، ثم بعثهم بالرسالة الإلهية فنفعوا بها من اهتدى بهديهم ، وكذلك نبينا ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم تركنا من بعده على المحجّة البيضاء النقية ، ليلها كنهارها من شدة وضوح الحق، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وكذلك لما سأل بنو إسرائيل نبيهم أن يسال الله تعالى أن يبعث لهم ملكا، لم يكُنِ الله تعالى لينتقي عليهم إلا الأفضل من بينهم، والأجدر أن يحمل هذا الأمر، وإن لم يوافق ذلك أهواءهم، فالأمر يتعلق بإقامة مصلحتهم وانتصارهم ،وإلا فهم نظروا إلى المظاهر الزائلة (المال والنسب) التي لا تنفكُّ أن تزول عن الإنسان لأي عارض كان، يقول الفخر الرازي :" ..والله تعالى بين أنه أهل للملك وقرر ذلك بأنه حصل له وصفان؛ أحدهما : العلم. والثاني : القدرة. وهذان الوصفان أشد مناسبة لاستحقاقه الملك من الوصفين الأولين وبيانه من وجوه؛ أحدها : أن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقية ، والمال والجاه ليسا كذلك. والثاني : أن العلم والقدرة من الكمالات الحاصلة لجوهر نفس الإنسان، والمال والجاه أمران منفصلان عن ذات الإنسان؛ الثالث : أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما عن الإنسان ، والمال والجاه يمكن سلبهما عن الإنسان والرابع : أن العلم بأمر الحروب ، والقوي الشديد على المحاربة يكون الانتفاع به في حفظ مصلحة البلد ، وفي دفع شر الأعداء أتم من الانتفاع بالرجل النسيب الغني إذا لم يكن له علم بضبط المصالح ، وقدرة على دفع الأعداء ، فثبت بما ذكرنا أن إسناد الملك إلى العالم القادر، أولى من إسناده إلى النسيب الغني..."[١].

وعند تتبُّعِ الروايات - في جلّ كتب التفسير- التي تذكر الكيفية التي صار فيها طالوت ملكا، نجدها من الإسرائيليات والتي لا مستند لها من الصحة، بل في كلّ منها ما يخالف ما جاء في كتاب ربنا من الحقائق حول هذه القصة.

وتلك الروايات تتلخص:

في أن طالوت خرج مع غلام له في طلب حمار له أو بعض الحمر لأبيه كان قد أضلها، وفي طريقهما مرّا ببيت نبي بني إسرائيل في تلك الحقبة، فأشار غلام طالوت عليه أن يدخلا على هذا النبي ويسألاه عن الحمر ويلتمسا منه الدعاء لهما، وكان النبي قبل ذلك الوقت ينتظر بعض العلامات التي أوحى الله تعالى إليه بها أنها هي التي تكشف عن ملك بني إسرائيل المرتقب، والتي تتمثل في عصا طويلة بطول الملك المرتقب، وزيت في قرن لا يغلي إلا عند وجود ذلك الملك ، فلما دخلا عليه وسألاه عن الحمر، إذ بالزيت يغلي ، فدعا النبي طالوت وقاسه بالعصا فكانت

[١] - مفاتيح الغيب (ج٦/ص ١٤٧).

مساوية له في الطول، فقرب رأسه ودهنه بالزيت المقدس وقال له أنت ملك بني إسرائيل، فسأله طالوت عن علامة صدق ذلك (!) فأخبره أنه عندما يرجع سيجد أباه قد وجد حمره - طبعا مع بعض الاختلاف في الروايات التي تزيد وتنقص في مجريات هذه القصة - ، وبعد ذلك تروى لنا كتب التفسير اعتمادا على هذه الإسرائيليات كيف أن بني إسرائيل استنكروا أن يكون طالوت هو الملك، خصوصا أنه ليس من سبط - عائلة- نبوة أو سبط ملك، وقد كان - حسب الرواية الإسرائيلية وما زلنا في تلخيص ما جاء فيها- في بني إسرائيل سبطان في أحدهما بيت النبوة، وفي الآخر بيت الملك، وليس طالوت من أحدهما، فأخبرهم نبيهم أن الله تعالى هو من اختاره وبعثه ملكا عليهم... .

طبعا هذه القصة المروية في كتب التفسير - للأسف - المستقاة من الروايات الإسرائيلية، تخالف في كثير من جوانبها القرآن الكريم :

أولاً : يظهر من خلال تدبّر الآيات أنّ طالوت ربّما كان أول مَلك لبني إسرائيل، ولم يكن قبل ذلك في بني إسرائيل ملوك، فكيف يكون هنالك فيهم سبط الملك ولم يكن ثمة ملك قبل طالوت، يقول محمد رشيد رضا : " وَلَا يَصِحُّ كَلَامُهُمْ فِي بَيْتِ الْمُلْكِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مُلُوكٌ قَبْلَهُ"[1].

ثانياً : لم تكن هنالك حاجة في وجود عصا بطوله وزيت في قرن يغلي حتى يعرف النبي بوجود الملك، بل يكفيه الوحي للدلالة على ذلك، والقرآن صرح بذلك في قوله تعالى حكاية عن النبي : {إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا } وانتهى الأمر.

ثالثاً : استنكارهم الذي ذكره القرآن كان مبنيّا على تصوّرهم للملك أنه ينبغي أن يكون من أشرافهم وأن يكون ذا سعة من المال- لا كما أخبرت الروايات الإسرائيلية التي ذكرت آنفا أنهم إنما استنكروا ذلك لأنه ليس من بيت ملك - فأخبرهم نبيهم بأن الوصف المناسب لشخص الملك والقائد العسكري المناسب لقيادة المعركة، هو العلم وقوة الجسد، والفيصل الذي حسم مادة الخلاف بينهم {إن الله اصطفاه عليكم }.

رابعاً : لو كانت العصا الطويلة والزيت المغلي داخل القرن علامة ملكه، لما ذكر القرآن علامات أخرى مغايرة لذلك ، فقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

[1] - محمد رشيد رضا،(المتوفى: ١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٩٠ م)، (ج٢/ص ٣٧٨).

لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٨)، يقول محمد رشيد رضا : " يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَقْتَنِعُوا بِمَا احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ مِنِ اسْتِحْقَاقِ طَالُوتَ الْمُلْكَ بِمَا اخْتَارَهُ اللهُ وَأَعَدَّهُ لَهُ بِاصْطِفَائِهِ، وَإِيتَائِهِ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَبَسْطَةِ الْجِسْمِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْقِيَامِ بِأَعْبَائِهِ، حَتَّى جَعَلَ لِذَلِكَ آيَةً تَدُلُّهُمْ عَلَى الْعِنَايَةِ بِهِ، وَهِيَ عَوْدُ التَّابُوتِ إِلَيْهِمْ "[١].

فيتبيّن لنا من ذلك كله ضعف الاعتماد على مثل تلك الروايات الإسرائيلية في تفسير الكتاب العزيز، بل لا بد من تحجيم وجودها في كتب التفسير ، وإن كانت هذه الرواية قد تدخل ضمن المسكوت عنه، ولكن أن تعتمد كنصّ في تفسير معناها، وتتداوله كتب التفسير، فهذا مما لا ينبغي إلا بالتنبيه عليه.

وطالوت من جملة الملوك الممدوحين الذين اصطفاهم الله تعالى، وخلد ذكرهم في القرآن ، وآتاهم العلم بجانب الملك ، فكان زادا لهم في إقامة الحق بين الناس، وإلا فالحق سبحانه بين أنه يؤتي ملكه من يشاء ، مؤمنا كان أم فاجرا ، كما آتى المَلك الذي حاجه إبراهيم المُلك على فجوره، ولكن الله تعالى لا يؤتي الحكمة والعلم إلا لعباده الطائعين المؤمنين {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} لذلك أخلص إلى قاعدة قرآنية وهي : أن كل ملك صالح في القرآن وصف بالملك والحكمة أو العلم ، وكل من وصف بالملك دون الحكمة أو العلم كان فاسدا، والله تعالى أعلم.

ثانيا : الإيتاء؛ وهو ما ورد في شأن داود عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾(البقرة: ٢٥١) .

ومعنى الإيتاء في اللغة كما عند ابن فارس في معجمه :"والإيتاء الإعطاء، تقول آتى يؤتي إيتاء"[٢].
وقال أبو هلال العسكري: في "الفرق بين الإيتاء والإعطاء: قال الفاضل النيسابوري: في الإعطاء دليل التملك دون الإيتاء"[٣].

[١] - تفسير المنار (ج٢/ص ٣٨٢).
[٢] - معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج١/ص ٥١).
[٣] - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥ه)،الفروق اللغوية، تحقيق: محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة-القاهرة،(ص: ٨٦).

وقال الرازي في مختار الصحاح :"وتقول آتاهُ على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقه وطاوعه والعامة تقول واتاهُ و آتاهُ إيتاءً أعطاه"[١].

هذا بالنسبة لمن رأى أن اللفظين متقاربان، وإلا ففي المسالة خلاف ؛ هل الإيتاء أقوى من الإعطاء أم العكس؟ فلننظر إلى ذلك - باختصار-:

قال أبو البقاء الكفوي :" ... والإيتاء أقوى من الإعطاء إذ لا مطاوع له يقال آتاني فأخذته وفي الإعطاء يقال أعطاني فعطوت وما له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله مما لا مطاوع له، ولأن الإيتاء في أكثر مواضع القرآن فيما له ثبات وقرار كالحكمة والسبع المثاني والملك الذي لا يؤتى إلا لذي قوة، والإعطاء فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه كإعطاء كل شيء خلقه لتكرر حدوث ذلك باعتبار الموجودات وإعطاء الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه وكذا { يعطيك ربك فترضى} للتكرر إلى أن يرضى كل الرضا.."[٢] .

ونقل صاحب تاج العروس -ابتداء - قول شيخه في جواب وصله منه في أن الإيتاء أقوى من الإعطاء فذكره :" ثم بَعْدَ مدَّةٍ كَتَبَ إليَّ مِن بلدِ الخليلِ صاحِبُنا العلاَّمَة الشّهاب أَحْمَدُ بنُ عبْدِ الغنيّ التَّمِيميّ إمامُ مَسْجده ما نَصّه : قالَ ابنُ عبْدِ الحقّ السّنباطيّ في شرْحِ نظمِ النقاية في علْمِ التَّفْسِيرِ منه ما نَصّه : قالَ الخويّي : والإعْطاءُ *اوالإيتاءُ لا يَكادُ اللُّغويُّونَ يُفَرِّقُونَ بَيْنهما ، وظَهَرَ لي بَيْنهما فَرْقٌ يُنْبىءُ عن بلاغَةِ كِتابِ اللهِ ، وهو أَنَّ الإيتاءَ أَقْوَى مِنَ الإعْطاءِ في إثْباتِ مفْعولِه ، لأنَّ الإعْطاءَ له مُطاوِعٌ بخِلافِ الإيْتاءِ ... قالَ : وقد تَفَكَّرْت في مَواضِع مِنَ القُرْآنِ فوَجَدْت ذَلِكَ مُراعىً ، قالَ تعالى : {تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ } ، لأنَّ المُلْكَ شيءٌ عَظيمٌ لا يُعْطاهُ إلاَّ مَنْ له قُوَّةٌ ؛ وقالَ : { إنَّا أَعْطَيْناكَ الكَوْثَرَ } ، لأنَّه مورود في المَوْقفِ مُرْتَحَل عنه إلى الجنَّة ، انتَهَى نَصُّه"[٣] .

ثم لم يلبث الزبيدي بعد أن أورد قول شيخه أن رده بأن الإعطاء أقوى من الإيتاء فقال : " ...فإِنَّ الإعْطاءَ أَقْوَى مِنَ الإيتاءِ ، ولذا خَصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءَ ليكونَ ذلِكَ بسُهولَةٍ من غَيْرِ تَطَلّعٍ إلى ما يَدْفَعه ، وتَأَمَّل سائِرَ ما وَرَدَ في القُرْآنِ تَجِدُ مَعْنَى ذلِكَ فيه ، والكَوْثَرُ لمَّا كانَ عَظِيماً شَأْنَهُ

[١] - مختار الصحاح (ص: ٥).
[٢] - الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (١٠٩٤ه) الكليات، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م،(ص: ٣٠٨).
[٣] - الزبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق (١٢٠٥ه)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، (ج٣٧/ص ٣٤).

غَيْر داخِلٍ في حِيطَةِ قدْرَةٍ بَشَرِيَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ فيه . وكَلامُ الأئمَّة وسِياقُهم في الإيتاءِ لا يُخالِفُ ما ذَكَرْنا ، فتأَمَّل والله أَعْلَم "[١].

ثم نوّه إلى فرق آخر بين اللفظين في المعنى، فقال :"وفَرَّق جماعَةٌ بَيْنَهما بأَنَّ الإيتاءَ قد يكونُ واجِباً وقد يكونُ تَفَضّلاً بخِلافِ الإعْطاءِ ، فإنَّه لا يكونُ إلاَّ بمحْضِ التَّفَضّلِ ؛ كما قالَهُ الفَخْر الرَّازِي ؛ ولا يَعْرفُ أَكْثَر أَئِمَّةِ اللُّغَةِ هذه التَّفْرِقَة"[٢].

وبعد استعراض ما سبق مما ذكر في معنى الإيتاء والإعطاء، فإنني أميل إلى أن الإيتاء - في الدنيا- أقوى من الإعطاء - ولكل من اللفظين ميزته التي يختص بها دون الآخر- خلافا لما ذهب إليه صاحب التاج، وذلك لما يلي - باختصار - :

١- لأن الإيتاء - كما ذكر أبو البقاء الكفوي - في أكثر مواضع القرآن فيما له ثبات وقرار كالحكمة والسبع المثاني والملك الذي لا يؤتى إلا لذي قوة، بينما كان الإعطاء فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه، كإعطاء كل شيء خلقه، لتكرر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ (الضحى: ٥) للتكرار إلى أن يرضى كل الرضا.

٢- والإيتاء أوسع من الإعطاء؛ فالإيتاءَ قد يكونُ واجِباً وقد يكونُ تَفَضّلاً بخِلافِ الإعْطاءِ ، فإنَّه لا يكونُ إلاَّ بمحْضِ التَّفَضّلِ - كما ذكر ذلك صاحب التاج نقلا عن الفخر الرازي-.

٣- وأما بالنسبة أنّ في الإعطاء دليل التملك دون الإيتاء - ولم ينقل فيما أعلم إلا عن الفاضل النيسابوري فيما حكاه عنه العسكري- فغير مسلم به على إطلاقه، فمن أوتي الزكاة - أخذها - فقد تملكها، ومن أوتي الملك فقد تملك.

٤- الإعطاء والإيتاء كلاهما جاء فيما يكون من عند الله تعالى ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(طه:٥٠) ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾(الكوثر:١) ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾(الضحى:٥) ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾(البقرة: ٨٧) ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا

---

[١] - تاج العروس (ج٣٧/ص ٣٥).
[٢] - تاج العروس (ج٣٩/ص ٦٣).

حَسَنَةً ﴾(النحل:٢٢) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾(الحجر: ٨٧)...وكلاهما جاء فيما يكون أيضا من عند الخلق ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾(الليل: ٥) ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾(البقرة: ٤٣) ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾(البقرة: ١٧٧)... .

٥- كِلا اللفظين جاء للدلالة على الإيتاء والإعطاء في الدنيا والآخرة: ففي الدنيا ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(طه: ٥٠) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾(النحل: ١٢٢)..وفي الآخرة ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾(الضحى: ٥) ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (آل عمران: ١٩٤)، ولكن مع ذلك فإن الملاحظ أن الإعطاء من عند الله تعالى في الآخرة أقوى من الإيتاء، وكأن الإعطاء في أمر الآخرة آكد من الإيتاء، كما أن الإيتاء في أمر الدنيا آكد من الإعطاء، ولربما لو كانت عبارة صاحب التاج أن الإعطاء أقوى من الإيتاء في أمر الآخرة لكان أصوب والله تعالى أعلم .

- أما بالنسبة لأقوال المفسرين في كيفية وصول داود إلى الملك:

فتتلخص أيضا في تأثر الكثير من المفسرين مرة أخرى بالروايات الإسرائيلية - والتي لا تسمن ولا تغني من جوع- في تبيان كيفية وصول داود - عليه السلام- إلى الملك-:

١- فبعض تلك الروايات - في كتب التفسير- ذكرت القصة مختصرة ؛ في أن داود كان أصغر إخوته ، وقد عبر هو وأبوه وإخوته النهر دون أن يقعوا في معصية طالوت ، فكانوا ابتداء من جملة المؤمنين، ثم إن داود كان يقاتل بالمقلاع بالحجارة، وكيف أنّه في طريقه للمعركة تكلمت معه ثلاثة أحجار وأنه يقتل بهن جالوت ، فاحتملهن ، وتم له ذلك الأمر في قتل جالوت بهن،

وكيف أنه سبق قبل ذلك من طالوت الوعد بأن يزوج ابنته من يقتل جالوت ويؤتيه ملكه، ففعل ذلك مع داود.[١]

٢- وبعض الروايات زادت على ذلك أنه بعد ذلك الانتصار حسد طالوت داود، فنكث بعهده، وحاول قتله، فلم يتم له ذلك ، ومات أو قتل طالوت، وأخذ داود الملك من بعد... إلى غير ذلك من الزيادات التي لا مستند لها من الصحة أيضا[٢] .

ووجه الحقيقة في ذلك أن القرآن الكريم بين لنا أن الملك انتقل من طالوت إلى داود - عليه السلام وذلك بعد انتصار طالوت بمن معه - ومن جملتهم داود- على جالوت وجنوده ، وأن الله تعالى هو من آتى داود الملك ثم امتنّ بعد ذلك عليه بالنبوة ثم بالعلم الدنيوي والأخروي . ويكفينا ويغنينا ما جاء في كتاب ربنا قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، دون الحاجة إلى الخوض في تفاصيل غيبية لم تثبت بنص صحيح واحد، بل جل ما جاء فيها روايات إسرائيلية تقدح في شخص الملك طالوت في كثير من الأحيان (وهذا ديدن التحريف، الطعن في كل شريف)، وهذا ليس محل استعراض ذلك وكيف قدحوا في الأنبياء عليهم السلام من خلال تحريفهم للتوراة والإنجيل.

---

[١] - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(المتوفى : ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، (ج١/ص ٣٧٤).
[٢] - تفسير البغوي (ج١/ص ٣٠٥).

المبحث الثاني : عمل الملك (وظيفته).

الملك هو رأس الهرم - إن صحَّ التعبير- في نظام ومؤسسة الحكم، فلا بد أن يكون أثره واضحا على أرض الواقع في حياة الناس، إما بمباشرة ذلك بنفسه، أو بمن ينوب عنه من عماله وجنده، فإن ذلك يمثله وإن غاب شخصه، فإنما ناب عنه من ناب باختياره وتحت قهره وسلطانه، وهو المسؤول عن ذلك أجمع بين يدي ربه يوم القيامة.

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن عمل الملك يمكن أن نجمله - من خلال تلك الآيات التي تحدثت عن الملوك الثلاثة الصالحين في القرآن (أعني طالوت وداود وسليمان عليهما السلام)- كالآتي :

١- **الحكم والقيادة** : زمام الأمور كلها بيد الملك، ومقاليد الحكم تحت تصرفه، ومن كانت هذه حاله في مملكته، سلم له الحكم والقيادة - وليس كل من مُلِّكَ تم له ذلك، ولكن الغالب أن يكون كذلك- ، ويتمثل ذلك في :

١) بناء الجيش وتصفية الجند من ضعفة النفوس والإيمان والعصاة، وذلك بسبرهم واختبارهم قبل ملاقاة العدو، حتى يخرج بالخلاصة المؤمنة الطائعة لله تعالى فيقع النصر بإذن الله، وتتغير الموازين الدنيوية من جهة العدّة والعتاد والكثرة والقلة لصالح المؤمنين، ويظهر ذلك جليا في اختبار طالوت لجنده قبل الالتقاء بجالوت وجنوده ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، يقول ابن الجوزي في ذلك : "ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم ومن ليس له نية " [١].

وقال نظام الدين النيسابوري : " قيل في حكمة هذا ابتلاء : إنه لما كان من عادة بني إسرائيل مخالفة الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة ، أظهر الله علامة قبل لقاء

[١] - زاد المسير (ج١/ص ٢٩٧).

العدو يتميز بها الصابر على الحرب من غير الصابر ، لأن الرجوع قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو" [١].

فلما تبيّن ذلك كله، ورسب من رسب في الاختبار، قال أهل الصبر والإيمان : { كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله } يقول النيسابوري في تفسير ذلك :" والمراد تقوية قلوب الذين قالوا : لا طاقة لنا، إذ العبرة بالتأييد الإلهي والنصرة الإلهية ، فإذا جاءت الدولة فلا مضرة في القلة والذلة ، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدة ...(إلى أن) قال : واعلم أن العلماء والأقوياء من عسكر طالوت لما قرروا مع ضعفائهم وعوامهم أن الغلبة لا تتعلق بكثرة العدد وأن النصر والظفر بإعانة الله اشتغلوا بالدعاء (قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً..) .... فلا جرم استجاب الله دعاءهم" [٢].

٢) الحزم – عند اللزوم- في إدارة الجند ، وتعيين مراكزهم ومهامهم ، والحفاظ على الجاهزية العسكرية الكاملة، وهذا هو عين ما وصفه الله تعالى عن جند سليمان وآلية إدارته لهم ، فقال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾(النمل:١٧).

وهذا الجيش المتنوع في أجناسه، الهائل في أعداده، المحتاج إلى من ينظمه، لابد له من النظام العسكري الحازم ، حتى يؤدي جيش سليمان مهمته على أكمل وجه، لذلك قال تعالى (فهم يوزعون) أي" إذا تقدم الأولون وسرعانهم وزعوا، وإذا توقف المتأخرون دفعوا ووزعوا عن الإبطاء. وهكذا يفعل الشُّرَط والوزعة للعساكر" [٣].

"والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم" [٤].

يقول سيد قطب :" حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره { فهم يوزعون } حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى فهو حشد عسكري منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم"[١].

---

[١] - القمي النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد (٨٥٠ه)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، (ج١/ص ٦٦٩).

[٢] - غرائب القرآن ورغائب الفرقان (ج١/ص ٦٧١).

[٣] - التفسير البسيط (ج١٧/ص ١٨٧).

[٤] - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(المتوفى: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة: الثانية ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م. (ج١٣/ص ١٦٧).

٣) إيجاد العقوبة المناسبة والإغلاظ في القول، والوعيد لمن شقّ عصا الطاعة، حتى تستقيم الجند على طاعته ، وتقع الرهبة من الوقوع في معصيته ، قال تعالى حكاية عن تصرف سليمان عليه السلام مع الهدهد ، وكان من جملة جنده من الطير عندما تفقدهم فلم يجده : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (النمل).

ولقد وجدت في ذلك كلاما رائقا لسيد قطب في توجيه قول سليمان ووعيده لهذا الجندي الغائب ، يقول رحمه الله: " ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف : {لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه } . . ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض ، إنما هو نبي . وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره . . ومن ثم تبرز سمة النبي العادل : { أو ليأتيني بسلطان مبين } . أي حجة قوية توضح عذره ، وتنفي المؤاخذة عنه" [٢].

٤) تهيئة عتاد الجندي الكامل بما في ذلك لباسه العسكري المناسب للقتال، حتى يكون ذلك أقوى لعزيمة الجند وأوقع في نفوس الأعداء ، وهو من العلم الذي أنعم الله تعالى به على داود عليه السلام، قال تعالى إخبارا عن ذلك ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾(الأنبياء: ٨٠).

" قال قتادة: أول من صنع الدروع داود، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلَّقها"[٣].

وفي كلمة (لِتُحْصِنَكُم) أوجه من القراءات، فقد " قرأ أبو جعفر وابن عامر، وروح وزيد عن يعقوب، وحفص عن عاصم {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ} [٨٠] بالتاء.

---

[١] - في ظلال القرآن (ج٥/ص٢٦٣٦).
[٢] - في ظلال القرآن (ج٥/ص٢٦٣٨).
[٣] - التفسير البسيط (ج١٥/ص ١٤٢)

وقرأ أبو بكر عن عاصم، ورويس عن يعقوب {لِنُحْصِنَكُمْ} بالنون. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف {لِيُحْصِنَكُمْ} بالياء" [١].

وتوجيه القراءة فيها :

" أن من قرأ لتحصنكم بالتاء: أرادوا الدرع، والدرع تؤنث وتذكر، وقال الزجاج: من قرأ بالتاء أراد الصَّنعة .

ومن قرأ لنحصنكم بالنون فالله جل وعز يخبر عن نفسه

ومن قرأ ليحصنكم بالياء أي ليحصنكم الله مثل النون ويجوز أن يكون المراد ذات اللبوس، ليحصنكم هذا اللبوس" [٢] .

٥) تحقيق مبدأ الشورى باتخاذ البطانة الصالحة التي تعينه على إقامة الحق ونشر العدل في الأرض ، ومثاله: الملأ من رعية سليمان عليه السلام، وكيف أخذ يشاورهم ويعتمد على القوي فيهم ، قال تعالى حكاية عنه :﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل) ،يقول البقاعي مبينا أن أهل الشورى عند سليمان هم أشراف القوم - وهكذا في الأصل هم - :"{يا ايها الملؤ} أي الأشراف {أيّكم يأتيني بعرشها} لترى بعض ما آتاني الله من الخوارق ، فيكون أعون على متابعتها في الدين ..." [٣].

ولا أريد أن أخوض في التفاصيل التي نقلت في بطون كتب التفسير، والتي تعتمد جلها أيضا على الروايات الإسرائيلية، ولكن ما يهمني هنا أن سليمان عليه السلام اتخذ بطانة صالحة من أشراف القوم، ليتخذهم أهلا لمشورته، وكذلك كانوا.

---

[١] - أبو بكر النيسابوري، أحمد بن الحسين بن مِهْران (المتوفى: ٣٨١هـ)، المبسوط في القراءات العشر تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق، عام النشر: ١٩٨١ م، (ص: ٣٠٢).

[٢] - ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد (٤٠٣ه) حجة القراءات، الطبعة الثانية، تحقيق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة – بيروت،١٤٠٢ – ١٩٨٢، (ص: ٤٦٩).

[٣] - نظم الدرر (ج٥/ص ٦٩٨).

٦) إقامة شريعة الجهاد في سبيل الله تعالى لنشر الإسلام وإصلاح الأرض، ونشر العدل في جنباتها ، ودحر شر المفسدين فيها قال تعالى يصور لنا ذلك في أول مشهد لبني إسرائيل مع ملكهم في قتال حقيقي مع عدوّ شرس :﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة).

ومما قاله البقاعي في هذه الآية: "ولما بين سبحانه وتعالى هذه الواقعة -على طولها- هذا البيان الذي يعجز عنه الإنس والجان، بين حكمة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ما هو أعم من ذلك من تسليط بعض الناس على بعض بسبب أنه جبل البشر على خلائق موجبة للتجبر وطلب التفرد بالعلو المفضي إلى الاختلاف، فقال - بانياً له على ما تقديره : فدفع الله بذلك عن بني إسرائيل ما كان ابتلاهم به" [١].

و مشهد آخر مع نبي وملك هو أعظم من الملك في المشهد السابق، إنه النبي الملك سليمان عليه السلام ، ففي معرض قوله بالتهديد والوعيد بالحرب والقتال ضد من كفر بالله تعالى وجعل له ندّا من عباده، وما قال سليمان ذلك إلا ثقة بالله تعالى ، ثمّ بما أولاه من طاعة جنده ، ومن جملتهم بنو إسرائيل ، فقال تعالى مصّوراً ذلك :﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ (النمل: ٣٧).

٧) حماية الأوطان واسترجاع ما سلب منها ، وحماية من سكن من الرعية فيها، ومثاله ما ذكره العزيز الحكيم في الآيات التي تتكلم عن ابتداء ظهور ملك طالوت ، إذ يقول سبحانه حكاية عن بني إسرائيل في نفيهم التقاعس عن القتال، وأنهم سيقاتلون تحت لواء الملك المختار لحماية واسترجاع وطنهم المحتل ومَن أُسِرَ مِن أبنائهم : ﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

[١] - نظم الدرر (ج١/ص ٦٨٢).

٢- **عمارة الأرض وسياسة الحياة المدنية وإصلاحها** : من المعلوم أن كل بلد يتكون من حاكم ومحكوم، لابد فيه من حقوق وواجبات ومؤسسات مدنية تعمل على تسهيل معيشة الرعية، ويتمثل ذلك في :

١) حماية حق أصغر وأضعف فرد من الرعية في الحياة الكريمة، وهذا ظاهر بوضوح في سماع سليمان عليه السلام لكلام تلك النملة التي خاطبت قومها بالفرار إلى المسكن الآمن خوفا من التحطم تحت وطأة جيش سليمان العظيم ، وما ذكره المفسرون من تعاطي سليمان مع هذا الأمر - وإن كان جلُّ ما ورد من الروايات الإسرائيلية- ، قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾(النمل) ، يقول الفخر الرازي : " أما قوله تعالى : {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا} يعني تبسَّم شارعاً في الضحك وآخذاً فيه ، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسُّمِ إلى الضحك ، وإنما ضحك لأمرين : أحدهما : إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك قولها : {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}، والثاني :سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه"[١] .

٢) بناء الحضارة المدنية القائمة على دين الله تعالى، والإسهام في إصلاحها، والعمل على تسهيل الحياة الكريمة لكل فرد من الرعية ، والآيات التي تتكلم عن الحضارة في عهد داود وسليمان عليهما السلام ، تبيّن أن الله تعالى سخر لهما ما يتيح بناء دولتهما وصروح حضارة أمتهما، والعمل على رفاهية رعيتهما ، يقول تعالى مبينا ذلك : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟

[١] - مفاتيح الغيب (ج٢٤/ص ١٦١).

صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ (سبأ)،"ويعلم من تقرير قصتي داود وسليمان، أن اشتغال داود بآلة الحرب أكثر لأنه قتل جالوت ، ثم أراد تسوية الملك والغلبة على الجبابرة ، وأما في زمن سليمان فالملك قد استوى ولم يكن على وجه الأرض أحد يقاومه وكان يفرق الأموال في الإطعام والإنعام"[١] .

٣- **القضاء بين العباد:**

إقامة دولة الحق، والحكم بين الرعية وفق ما أنزل الله تعالى بالعدل والإحسان من أهم واجبات الملك العادل، ومن تأمل في عهد داود وسليمان عليهما السلام، وجد العدل يملأ جنبات دولتهما، قال تعالى مخبرا عن ذلك :﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾(الأنبياء) .وقال تعالى :﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ

---

[١] - غرائب القرآن ورغائب الفرقان (ج٥/ص ٤٨٨).

بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾(ص) ،و" هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله"[١] .

---

[١] - تفسير ابن كثير (ج٤/ ص٤١).

المبحث الثالث : نماذج على عدل الملوك، مع بيان أهم صفاتهم .

إنّ المتدبِّرُ إذا أنعم النظر في القرآن الكريم، وجد أنّ الله تعالى ذكر في القرآن ستّة أمثلة للمُلوك الذين أقسطوا في الأرض، وأقاموا العدل فيها، ومثالا واحدا لمن أوتي نصيبا وافرا من الملك، وهو يوسف عليه السلام، فأصلح في الأرض، وأقام العدل فيها، أمّا بالنسبة للملوك الستّة فمنهم الصالحون المسلمون، مثل (طالوت وداود وسليمان - عليهما السلام- وذو القرنين)، ومنهم من كان كافرا ولم يمنعه كفره من إقامة العدل بين الناس، مثل (الملك في سورة يوسف، وملكة سبأ) ، وما خلا ذلك من القيادات التي ذكرت في القرآن الكريم، لم يأت التعيين على اعتبارهم من الملوك صراحة، لا في القرآن ولا في السنة.

ولابد من إفراد الحديث عن كل واحد منهم على حدة، مرتِّبا ذلك حسب ورود ذكره في القرآن، حتى نتبين أهم صفاته كملك مقسط، وللاطلاع على الأسباب التي أعانته على الثبات على ذلك.

المطلب الأول : الملك طالوت :

طالوت رجل من عامّة بني إسرائيل حسب ما تذكره التفاسير ، لم يكن قبل أن يصبح ملكا ذا شأن أو ذكر بينهم ، فلم يذكره القرآن قبل ذلك بشيء، كما لم يذكره بعد انتهاء معركته مع جالوت وانتصاره عليه.

إذا واعتمادا على المصدر الموثوق الوحيد بين أيدينا للاطلاع على ما جاء في سيرة هذا الملك، تتبين لنا صفات الملك طالوت فقط في إطار تلك الآيات الخمس من سورة البقرة والتي تضمنت قصته، حيث لم ترد الإشارة إليه في القرآن في غير هذا الموضع .

- من صفاته وأسباب صلاحه :

١- اصطفاه الله تعالى من جملة المؤمنين من بني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾(البقرة) ، وهذا الخطاب إنما كان موجها للملأ من بني إسرائيل ، فإن حملنا معنى الملأ على أنهم هم النخبة والصفوة من

أهل الرأي في المؤمنين – كما سيأتي ذلك في معنى كلمة الملأ في الاصطلاح في موضعه -، فسيكون النبي من جملتهم، بل من نخبة النخبة والصفوة في قومه، وهو ما يدل عليه اللفظ – اصطفاه عليكم – في الآية، وإن حملنا معنى كلمة الملأ على أنهم جماعة بني إسرائيل برمّتهم، فسيكون الملك طالوت كذلك من أفضل تلك الأمة في تلك الحقبة فيما يتعلق بالملك ، وإلا فالنبي الموجود بين أظهرهم والمخاطب من قبل الملأ، والذي بواسطته اختير الملك طالوت، هو أفضل – ولابد- من طالوت، فالأنبياء هم صفوة الله تعالى من خلقه، إذا فالاصطفاء المذكور في الآية هو في جانب الأنسب للملك ولقيادة أمة بني إسرائيل في المعركة الأولى لهم مع عدوهم.
وأنا أميل إلى كون المعنى هنا لكلمة (الملأ) أنها جماعة بني إسرائيل بما فيهم النخبة ، فالاعتراض الوارد في الآية من قبل الملأ على اختياره يبيّن أنه كان من عامّة فقراء بني إسرائيل، ولم يكن من وجهائهم أو رؤسائهم أو حتى من أهل الرأي والمشورة فيهم أصلا، وإلا لاعتمدوه وما اعترضوا عليه .

ويعلق ابن عاشور على ذلك فيقول: "والسر في اختيار نبيئهم لهم هذا الملك أنه أراد أن تبقى لهم حالتهم الشورية بقدر الإمكان ، فجعل مَلِكهم من عامتهم لا من سادتهم ، لتكون قدمه في الملك غير راسخة ، فلا يخشى منه أن يشتد في استعباد أمته ، ... وقُوَّادُ بني إسرائيل لم يتفطنوا لهذه الحكمة لقصر أنظارهم ، وإنما نظروا إلى قلة جدته ، فتوهموا ذلك مانعاً من تمليكه عليهم ، ولم يعلموا أن الاعتبار بالخلال النفسانية ، وأن الغنى غنى النفس لا وفرة المال وماذا تجدي وفرته إذا لم يكن ينفقه في المصالح ... .

فقولهم : { ونحن أحق بالملك } جملة حالية ، والضمير من المتكلمين ، وهم قادة بني إسرائيل وجعلوا الجملة حالاً للدلالة على أنهم لما ذكروا أحقيتهم بالملك لم يحتاجوا إلى الاستدلال على ذلك؛ لأن هذا الأمر عندهم مسلم معروف ، إذ هم قادة وعرفاء ، ... وقوله : { ولم يؤت سعة من المال } معطوفة على جملة الحال فهي حال ثانية . وهذا إبداء مانع فيه من ولايته الملك في نظرهم، وهو أنه فقير ، وشأن الملك أن يكون ذا مال ليكفي نوائب الأمة فينفق المال في العدد والعطاء وإغاثة الملهوف ، فكيف يستطيع من ليس بذي مال أن يكون ملكاً ، وإنما قالوا هذا لقصورهم في معرفة سياسة الأمم ونظام الملك؛ فإنهم رأوا الملوك المجاورين لهم في بذخة وسعة فظنوا ذلك من شروط الملك . ولذا أجابهم نبيئهم بقوله : { إن الله اصطفاه عليكم } رادّاً على

قولهم:{ ونحن أحق بالملك منه } فإنهم استندوا إلى اصطفاء الجمهور إياهم فأجابهم بأنه أرجح منهم لأن الله اصطفاه..."[١].

ولعل المتأمل في الآيات يلاحظ أن نسبة الاختيار والاصطفاء -في شأن الملك هنا- عائدة إلى الوحي من عند الله تعالى، والذي من شأنه أن يقطع كل اعتراض، ...ومع ذلك اعترضوا..!، وليس الأمر كما ذكر ابن عاشور من كونه كان من عامتهم حتى تبقى الحالة الشورية، وحتى لا تثبت قدمه في الملك، فكل هذا استنتاج غير صحيح، والصحيح أن الله تعالى أراده على هذه الصفة للهدف الذي تحقق في النهاية، وهو انتصارهم على عدوّهم، وأقول من جديد: عجيب أمر تلك الأمّة، يخبرها نبيّها بوحي صادق من عند الله تعالى وهم الذين لجؤا إليه ابتداء لعلمهم بصدقه وإيمانهم بنبوته، ومع ذلك لم يَرق لهم الأمر حتى اعترضوا ثم ألزموا بالاختيار، وحتى لا يبقى لهم أي عذر في عدم اتباعه وتصديقه، أيّد بالعلامات الدالّة على ملكه، مع أنه كان يكفيهم قول نبيهم، ....ولكنها عادة وطبع بني إسرائيل في التعامل مع الوحي الصادق من عند الله تعالى، وليس أدل على ذلك من قصصهم الأخرى مع أنبيائهم كما يصورها القرآن .

" وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات بني إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة . . لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه . ولقد قالوا : إنهم يريدون أن يقاتلوا { في سبيل الله } . فها هم أولاء ينغضون رؤوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم؛ ويستنكرون أن يكون طالوت - الذي بعثه الله لهم - ملكاً عليهم . لماذا؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة ... وكل هذا غبش في التصور ، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة ..."[٢].

ويقول محمد سيد طنطاوي : " قال لهم نبيهم مدلِّلاً على أحقية طالوت بالقيادة : إن الله - تعالى - {اصطفاه عَلَيْكُمْ } أي اختاره وفضله عليكم واختياره يجب أن يقابل بالإذعان والتسليم ... فمالك الملك هو الذي اختاره فكيف تعترضون يا من تدَّعون أنكم تريدون القتال في سبيل الله؟...فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره ، (والله واسع) الفضل والعطاء (عليم) .

ثم حكى القرآن أن نبيهم لم يكتف بهذه الدلائل الدالة على صلاحية طالوت للقيادة ، وإنما ساق لهم بعد ذلك من العلامات التي تشهد بأحقيته بهذا المنصب ما يثبِّت قلوبهم ، ويزيل شكهم ويشرح نفوسهم ... وقال لهم نبيهم ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك { إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ }... .

---

[١] - التحرير والتنوير (ج٢/ ص٤٨١).
[٢] - في ظلال القرآن (ج١/ص٢٦٧).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ } أي : إن في ذلك الذي أتاكم به طالوت لآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله وبالحق الذي جاء به أنبياؤه... "[1] .

٢- مؤيَّدٌ بالوحي من عند الله تعالى :

ويؤكِّد ذلك قوله لجنوده كما في الآية : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...

﴾(البقرة: ٢٤٩)، فهذا الإخبار المباشر بالاختبار من الله تعالى لا يصدر ألا عن وحي، وإلا فمن

أعلمه بالنهر وأنه موضع الاختبار. ولماذا لم يسنده لنفسه فيقول مثلا : إني مختبركم بنهر، ولا يمكن أن يجترئ أن يسند الأمر في ذلك إلى الله تعالى إلا عن وحي صادق، ومع ذلك نجد أن بعض المفسرين ممن خاضوا غمار هذا التفصيل اختلفوا فيه، وعند تحرير موضع الخلاف – دون توسُّعٍ – في المسألة، وجدت أن مرجع اختلافهم إلى أمرين :

١) اختلفوا فيمن قال (إن الله مبتليكم بنهر..) : هل هو طالوت؟ أم هو نبي ذلك الوقت؟

وقد ذكر الرازي القولين ورجّح الأول ، فقال :" اختلفوا في أن هذا القائل من كان: فقال الأكثرون : أنه هو طالوت وهذا هو الأظهر لأن قوله لا بد وأن يكون مسنداً إلى مذكور سابق، والمذكور السابق هو طالوت ... .

والقول الثاني : أن قائل هذا القول هو النبي المذكور في أول الآية ، والتقدير : فلما فصل طالوت بالجنود قال لهم نبيهم : {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ} ..."[2].

وقطع ابن عاشور بأنّ القائل هو طالوت، فقال :" وضمير { قال } راجع إلى (طالوت) ، ولا يصح رجوعه إلى نبيئهم لأنه لم يخرج معهم..."[3] ، ولا أدري من أين جاء بهذا القول وهو عدم خروج النبي مع القوم للقتال، وكيف جزم ابن عاشور بذلك وقطع به دون أدنى دليل صحيح، ولكني أظن أن ذلك كان اعتمادا على المرويات الاسرائيلية وإن لم ينبِّه عليها صراحة ، مع أن الدليل العقلي يملي على المتدبر في صفات الأنبياء والمرسلين، أنهم أشد الناس امتثالا لأمر الله تعالى، فكيف يخبرهم ملكهم بأن القتال كتب عليهم، ثم لا يشاركهم نبيّهم فيه ! ، أظن أن

---

[1] - طنطاوي، محمد سيد (١٤٣١ه)،التفسير الوسيط، الطبعة الأولى، الفجالة- القاهرة، دار النهضة، (ج ١-٣/ص: ٤٥٤).
[2] - مفاتيح الغيب (ج٦/ص ١٥٢).
[3] - التحرير والتنوير (ج٢/ص ٤٨٦).

ابن عاشور رحمه الله تعالى قد تسرّع في نفي القول الثاني اعتمادا على هذا الاستنتاج والله تعالى أعلم.

٢) وتفرَّع عن هذه المسألة لمن قال إنه من قول طالوت : هل كان هذا القول منه احتمالا من الوحي النازل على نبي ذلك الوقت، أم هو وحي مباشر من الله تعالى إلى طالوت – على قول من قال أنه حاز النبوة إلى جانب الملك- ، أم هو اجتهاد منه مع توفيق –إلهام – من الله تعالى.

وقد ذكر الرازي الاحتمالين الأوّلين دون ترجيح فقال : " ثم على هذا يحتمل أن يكون القول من طالوت لكنه تحمله من نبي الوقت ، وعلى هذا التقدير لا يلزم أن يكون طالوت نبياً ويحتمل أن يكون من قِبَلِ نفسه فلا بد من وحي أتاه عن ربه ، وذلك يقتضي أنه مع الملك كان نبياً "[١].

وكذلك الحال عند أبي حيان : " ...وظاهر قول طالوت : (ان الله...) يوحي إمالة على قول من قال : إنه نبي ، أو يوحي إلى نبيهم وإخبار النبي طالوت بذلك..." [٢].

أما ابن عاشور فقد ذكر أن إسناد طالوت - في قوله- أن الابتلاء إنما هو من عند الله تعالى، إنما يرجع في احتمال أنه اجتهاد من عند نفسه، وأن ذلك بمثابة كونه من عند الله تعالى؛ إذ طاعته - وهو المصطفى المبعوث بالملك من عند الله تعالى – من طاعة الله تعالى ؛ فمن هنا أسند أمر الابتلاء إلى الله تعالى :" وإنما أخبر طالوت عن الله تعالى بأنه مبتليهم ، مع أنه لم يكن نبيئاً ، يوحى إليه : إما إستناداً لإخبار تلقاه من صمويل ، وإما لأنه اجتهد أن يختبرهم بالشرب من النهر لمصلحة رآها في ذلك، فأخبر عن اجتهاده ، إذ هو حكم الله في شرعهم فأسنده إلى الله ، وهذا من معنى قول علماء أصول الفقه إن المجتهد يصح له أن يقول فيما ظهر له باجتهاده إنه دين الله أو لأنه في شرعهم أن الله أوجب على الجيش طاعة أميرهم فيما يأمرهم به ، وطاعة الملك فيما يراه من مصالحهم ، وكان طالوت قد رأى أن يختبر طاعتهم ومقدار صبرهم بهذه البلوى فجعل البلوى من الله؛ إذ قد أمرهم بطاعته بها " [٣].

---

[١] - مفاتيح الغيب (ج٦/ص ١٥٢).
[٢] - أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (٧٤٥ه)، تفسير البحر المحيط، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م،(ج٢/ ص٢٧٣).
[٣] - التحرير والتنوير (ج٢/ص ٤٨٦).

أما سيد قطب فقد أسند القول والابتلاء إلى اجتهاد طالوت، فقال مُشعِراً بذلك :" فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره " [١].

والذي أميل إليه أن الابتلاء إنما هو من عند الله تعالى ، وأن الملك طالوت لم يقل ذلك إلا بالرجوع إلى نبي ذلك الوقت، كيف لا وهو – أي النبي – من أهل مشورته، ومعلوم أن الملوك في الحروب لابد لهم من مجلس حرب فيه أهل المشورة والعلم والدراية بالقتال، والنبي هو خير من يستشار في ذلك ، إذ هو الواسطة لهم بين السماء والأرض، وقول من قال – كما نقلت قبل قليل- أن النبي لم يكن معهم حينها لا يستند إلى شيء من الصحة، والله تعالى أعلم.

٣- من عامّة بني إسرائيل :

وهذا لا يحتاج إلى بسط في الكلام إذ هو واضح من اعتراض الملأ من بني إسرائيل على كونه ملكا عليهم وهو من عامّتهم، وهذه صفة من لا مال له في الغالب ، كما في قوله تعالى :" أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال..."، يقول ابن عاشور :" وقوله : { ولم يؤت سعة من المال } معطوفة على جملة الحال فهي حال ثانية . وهذا إبداء مانع فيه من ولايته الملك في نظرهم ، وهو أنه فقير ، وشأن الملك أن يكون ذا مال ليكفي نوائب الأمة فينفق المال في العدد والعطاء وإغاثة الملهوف ، فكيف يستطيع من ليس بذي مال أن يكون ملكا "[٢]، و" ..الْأُمَمَ فِي طَوْرِ الْجَهْلِ تَرَى أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْمُلْكِ وَالزَّعَامَةِ أَصْحَابُ الثَّرْوَةِ الْوَاسِعَةِ كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِ الْمُنْكِرِينَ عَلَى مُلْكِ طَالُوتَ فِي تَأْيِيدِ إِنْكَارِهِمْ (وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ)..."[٣].

٤- زاده الله بسطة في العلم والجسم :

والبسطة في العلم كما يعرفها أبو حيان الأندلسي :" قيل : في العلم بالحروب، والظاهر علم الديانات والشرائع..."، ونجد أن تعريف أبي حيان هنا حصر في العلم الديني الشرعي، وهذا غير ظاهر في الآية، وما الحاجة إليه بالتحديد خصوصا عند الحرب ومع وجود الشرع المتمثل بالنبي!، لذلك وجدت أن تعريف محمد أبو زهرة للبسطة في العلم أعم وأشمل وأقرب للمقصود من سياق الآية التي تتحدث عن التجهز لتنصيب ملك يقوم على قتال الأعداء لاسترداد الحقوق الضائعة لبني إسرائيل، فيقول :"والبسطة فى العلم معناها: الاتساع في الافق والتجارب، وقوة

---

[١] - في ظلال القرآن (ج١/ص٢٦٨).
[٢] - التحرير والتنوير (ج٢/ص ٤٨١).
[٣] - تفسير المنار (ج٢/ص ٣٩٢).

العقل والتدبير والإحكام في التفكير ؛ فالبسطة معناها الاتساع ، وإذا أضيفت إلى العلم فمعناها : الاتساع والإحاطة بكل ما يوجه العقل إلى التفكير المستقيم مع سلامة العقل نفسه..." [١].

وذلك أن الملك القائد لقومه يلزم أن يكون ذا علم وتفكير سليم وإحاطة بما يجري من حوله ، وإلا كان مغفَّلاً، وهذا لا يتناسب مع مقصد وجوده في هذا المنصب.

ثم عرّج أبو زهرة إلى تعريف البسطة في الجسم إلى :" وبسطة الجسم اتساعه ، لا بمعنى كثرة اللحم والشحم ، بل بأن يكون سبط العظام مديد القامة بعيد ما بين المنكبين ، وقد يراد ببسطة الجسم تلك الحقيقة ... القوة ، وخص بعضهم به قوة القلب..."[٢].

وهو مجمل ما ذهب إليه عامّة أهل التفسير في معناها، وإن فسرها الرازي بالقدرة[٣]، فهو لا يخرج بعيدا عن المعنى الذي ذكر، إذ يبقى معنى القدرة متحقِّقاً فيمن تحققت فيه صفات الجسد القوي مع قوة القلب ، والله تعالى أعلم.
لذلك قال - عقب ذلك- منوِّهاً إلى أن الملك طالوت جمع من الأوصاف ما يجعله الأمثل – على الأقل بالنسبة لذاك الزمن- لاعتلاء منصب الملك، وقيادة بني إسرائيل : " والله تعالى بين أنّه أهلٌ للملك وقرر ذلك بأنه حصل له وصفان أحدهما : العلم والثاني : القدرة ، وهذان الوصفان أشد مناسبة لاستحقاقه الملك من الوصفين الأولين وبيانه من وجوه؛ أحدها : أن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقية ، والمال والجاه ليسا كذلك. والثاني : أن العلم والقدرة من الكمالات الحاصلة لجوهر نفس الإنسان والمال والجاه أمران منفصلان عن ذات الإنسان. الثالث : أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما عن الإنسان ، والمال والجاه يمكن سلبهما عن الإنسان. والرابع : أن العلم بأمر الحروب ، والقوي الشديد على المحاربة يكون الانتفاع به في حفظ مصلحة البلد ، وفي دفع شر الأعداء أتم من الانتفاع بالرجل النسيب الغني إذا لم يكن له علم بضبط المصالح ، وقدرة على دفع الأعداء ، فثبت بما ذكرنا أن إسناد الملك إلى العالم القادر ، أولى من إسناده إلى النسيب الغني"[٤].
وقد قال الشنقيطي في معرض ذكر صفات الإمام الأعظم (الملك) "أن يكون سليم الأعضاء غير زمن ولا أعمى ونحو ذلك، ويدل لهذين الشرطين الأخيرين، أعني: العلم وسلامة الجسم قوله تعالى في طالوت: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}"[٥].

---

[١] - أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (ص: ٨٩٢).
[٢] - زهرة التفاسير (ص: ٨٩٢).
[٣] - مفاتيح الغيب (ج٦/ص ١٤٨).
[٤]- مفاتيح الغيب (ج٦/ص ١٤٧).
[٥] - الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت – لبنان،١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ مـ ،(ج١/ص ٢٨).

المطلب الثاني : النبي الملك داود عليه السلام:

ظهر ذكره مباشرة في نهاية قصة الملك طالوت، وبعد المعركة الفاصلة، فكأن دور الملك طالوت انتهى بمجرَّد أن انتصر على الملك الظالم جالوت، وهي المهمة التي من أجلها تم اختياره وتنصيبه كما جاء في الآيات، فانتقل وصف المُلك على بني إسرائيل منه مباشرة بعد المعركة إلى داود عليه السلام، والمرحلة الزمنية لحصول ذلك لا تعنينا إذ لم يفصِّل القرآن فيها شيئا، ولا يصح أن نعتمد فيها على ما جاء من الاسرائيليات.

- من صفاته وأسباب صلاحه :

١- أنّه من جملة أهل الطاعة من مؤمني بني إسرائيل في جيش طالوت:

كما تقرَّر من قصة الملك طالوت أنّ داود – عليه السلام- كان من الفئة القليلة المؤمنة الصابرة التي أطاعت ربها ونجحت في الاختبار الأول (النهر)، ولم تتولّ من الزحف رهبة من قوة وكثرة جنود جالوت، بل كان الفضل من الله تعالى على داود - عليه السلام- أن قُتِل على يديه ذلك الملك الغشوم جالوت، ومعلوم أن أنبياء الله تعالى هم الصفوة من خلقه سبحانه "وقوله : { من ذرّيته} (الأنعام :٨٤) حال من داوود ... وفائدة هذا الحال التّنويه بهؤلاء المعدودين بشرف أصلهم وبأصل فضلهم"[١]، والله تعالى يحيط بأهل الفضل والصلاح من عباده عناية وحفظا قبل النبوة وبعدها، وذلك من تمام حفظه لأوليائه الصالحين، لذلك نجد أن داود – عليه السلام – كان من أهل الإيمان والطاعة قبل النبوة والملك، وأظنّ أنّ ذلك من إرهاصات نبوّته وصلاح ملكه مع صغر سنّه وفتُوّته كما ذكر ذلك أغلب المفسرين[٢].

أنشأه الله تعالى على طاعته، وابتلاه بالجهاد والصبر على مرضاته سبحانه في صغره، تأهيلا له لحمل عبء الملك والنبوة بعد ذلك، ولتعلم بنو إسرائيل أن لا منافس له على الملك من بينهم من بعد طالوت، وهذه حكمة الله تعالى ، يؤتي ملكه من يشاء، ويهيئ لذلك الأسباب، يقول سيد قطب:

---

[١] - التحرير والتنوير (ج٥/ص ٨٨).
[٢] - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠ه)، النكت والعيون، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان (ج١/ص ٣١٧).

"وقتل داود جالوت، وكان إذ ذاك فتى، ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولي الملك أخيراً؛ وأصبح ذا سلطان"[١].

٢- ذو قوة وبأس في الجهاد في سبيل الله تعالى:

ويكفي في توضيح ذلك أنّه هو من قتل الجبار الطاغية جالوت، الذي كان سببا في سلب ديار بني إسرائيل وإذلالهم، ومعلوم أن الملوك الجبابرة لا ينازلون في ساحات المعارك – إن نازلوا- إلا من يوازيهم قوة، أو يمكننا القول من جهة أخرى، أن الملوك وإن لم ينازلوا أحدا في ساحات الوغى، فلن يستطيع أحد الوصول إليهم من شدة الحراسة والاستماتة من قبل الجند في الدفاع عن ملوكهم، إذ بهزيمته تباد جماعتهم وتستأصل بيضتهم، ولا يستطيع الوصول إلى الرأس في المعركة إلا ذو قوة وذو بأس شديد في القتال، حتى يتسنى له اجتياز كل تلك الصعاب نحو قمة الجبل ليرقى فوقها ويقهرها، وهذا ما فعله داود – عليه السلام -، وليس هنالك أي داع إلى الخوض فيما أورده المفسرون من القصص الإسرائيلية في كيفية سير المعركة، وكيف قتل داود – عليه السلام – جالوت، فإن ذلك مما لا فائدة من ذكره، إذ لم يصح فيه شيء، والله تعالى أعلم.

والله تعالى هو من وصف نبيه داود – عليه السلام- بالقوة والبأس، وهو الذي مكنه ابتداء من قتل جالوت، ومن ثم قيادة بني إسرائيل وإدارة مملكتهم من بعد طالوت، يقول الماوردي :" {ذا الأيد} فيه قولان : أحدهما : ذا النعم التي أنعم الله بها عليه لأنها جمع يد حذفت منه الياء ، واليد النعمة الثاني : ذا القوة ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد ، ومنه {والسماء بنيناها بأيد} أي بقوة . وفيما نسب داود إليه من القوة قولان : أحدهما : القوة في طاعة الله و[الثاني][٢] النصر في الحرب ، قاله مجاهد ..."[٣]، ويقول ابن جزي :" {واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب} الأيد القوة وكان داود جمع قوة البدن وقوة الدين والملك والجنود"[٤] .

---

[١] - في ظلال القرآن (ج٥/٣٠١٧).
[٢] - سقط من المتن.
[٣] - النكت والعيون (ج٥/ص ٨٣).
[٤] - ابن جزي، محمد بن أحمد، (٧٤١ه)، التسهيل لعلوم التنزيل، الطبعة الأولى، تحقيق : الدكتور عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ١٤١٦ه، (ج٢/ص ٤٤٢).

٣- أوَّلُ نبِيٍّ مَلِك:

كان بنو إسرائيل في بداية الأمر تسوسهم الانبياء، ولم يكن فيهم المُلك، بل كانوا مستضعفين في الأرض، فطلبوا من الله تعالى، عن طريق نبي لهم، أن يجعل لهم ملكا يقاتلون تحت ظله، فاستجاب الله تعالى لهم، فكان الملك فيهم مع وجود النبي بين أظهرهم كما في عهد الملك طالوت، ثمّ جمع الله تعالى الملك والنبوة بعد الملك طالوت في شخص واحد وهو النبي الملك داود - عليه السلام- بعد ما كان الأمر مفرقا في بدايته بين شخص طالوت وشخص نبي ذاك الزمان ، يقول البغوي في ذلك:" قوله تعالى: { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } يعني: النبوة؛ جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن من قبل"[1]، ويقول سيد طنطاوي :" ثم بين - سبحانه - ما منحه لداود من نعم فقال : { وَآتَاهُ الله الملك والحكمة وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ } والحكمة المراد بها هنا النبوة ، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله في بني إسرائيل ، وورثه فيهما ابنه سليمان - عليه السلام – "[2].

وقد قال الله تعالى في شأن ذلك : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة) ، أي آتاه الله تعالى عقب هذه الحادثة - خلالها أو بعد حكم الملك طالوت- الملك والنبوة ، يقول الماوردي :" {وَءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} يعني داود ، يريد بالملك السلطان وبالحكمة النبوة"[3]، وعلى هذا كثير من المفسرين – وهو تفسير الحكمة في الآية هنا على أنها النبوة في حق داود عليه السلام-، ولكن ذهب فريق منهم إلى غير هذا المعنى، منهم محمد رشيد رضا حيث يرد كون المعنى المراد منها أنها النبوة :" قَالَ تَعَالَى: {وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} فَسَّرُوا الْحِكْمَةَ هُنَا بِالنُّبُوَّةِ، وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنْ تُفَسَّرَ بِالزَّبُورِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} (٤: ١٦٣) وَبِهِ كَانَ نَبِيًّا "[4]، وإن كان قوله وجيهاً – في نظري- ، إلا أنه لا يمنع من أنّ الله تعالى أكّد النبوة في حق داود بذكر إيتائه الزبور، فلماذا الفصل بين الأمرين؟، فالحكمة والزبور كلاهما يدلّان على نبوته عليه السلام.

وهنا مسألة مهمة، ذكرها الرازي ولم يردَّ عليها، قد يتوهَّم القارئُ للوهلة الأولى ثبوتها وصحتها، وهي القول بأنّ النبوّة كسبية، يمكن أن تنال بالكسب، أو كجزاء على العمل الصالح في الدنيا، يقول الفخر الرازي: "أما قوله تعالى : {وَ ءآتاه اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} ففيه مسائل :

---

[1] - تفسير البغوي (ج١/ص ٣٠٧).
[2] - الوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص: ٤٦٠).
[3] - النكت والعيون (ج١/ص ٣٢٠).
[4] - تفسير المنار (ج٢/ص ٣٨٩).

المسألة الأولى : قال بعضهم آتاه الله الملك والنبوة جزاء على ما فعل من الطاعة العظيمة ، وبذل النفس في سبيل الله ، مع أنه تعالى كان عالماً بأنه صالح لتحمل أمر النبوة ، والنبوة لا يمتنع جعلها جزاء على الطاعات كما قال تعالى : {وَلَقَدِ اخْتَرْنَـاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَـالَمِينَ * وَءَاتَيْنَـاهُم مِّنَ الآيَـاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ} (الدخان : ٣٢ ، ٣٣) وقال : {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه } (الأنعام : ١٢٤) وظاهر هذه الآية يدل أيضاً على ذلك لأنه تعالى لما حكى عن داود أنه قتل جالوت ، قال بعده : {وَءَاتَـاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} والسلطان إذا أنعم على بعض عبيده الذين قاموا بخدمة شاقة ، يغلب على الظن أن ذلك الإنعام لأجل تلك الخدمة ، وقال الأكثرون : إن النبوة لا يجوز جعلها جزاء على الأعمال ، بل ذلك محض التفضل والإنعام، قال تعالى : {اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ } (الحج : ٧٥).

المسألة الثانية : قال بعضهم : ظاهر الآية يدل على أن داود حين قتل جالوت آتاه الله الملك والنبوة، وذلك لأنه تعالى ذكر إيتاء الملك والنبوة عقيب ذكره لقتل داود جالوت ، وترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم..."[1].

ومذهب أهل السنّة أنّ هذا الكلام لا يجوز في حق الأنبياء بل في حق الله تعالى؛ لأنّه لم يقل بأنّ النبوّة كسبية من جهة العبد نتيجة الاجتهاد في الأعمال الصالحة إلا أهل القدر والاعتزال والرافضة، يقول ابن تيمية في ذلك :"وكثير من القدرية المعتزلة والشيعة وغيرهم ممن يقول بأصله في التعديل والتجوير وأن الله لا يفضل شخصا على شخص إلا بعمله يقول إن النبوة أو الرسالة جزاء على عمل متقدم فالنبي فعل من الأعمال الصالحة ما استحق به أن يجزيه الله بالنبوة"[2].

ويقول في تقرير مذهب أهل السنة في ذلك :"والنبوة لا تنال بعلم ولا رياضة، ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها كما يظنّ من في عقله بلادة، وإنّما هي محض فضل إلهيّ، ومجرّد اصطفاء ربانيّ، وأمر اختياريّ؛ فهو جلّ وعلا كما أخبر عن نفسه: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة، ١٠٥]، فالنبوة إذاً لا تأتي باختيار النبيّ، ولا تنال بطلبه"[3].

---

[1] - مفاتيح الغيب (ج٦/ص ١٦٠).

[2] - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨ه)، منهاج السنة النبوية، الطبعة الأولى، تحقيق : د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة،١٤٠٦ه، (ج٢/ص ٤١٥).

[3] - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨ه)، النبوات، الطبعة الأولى، تحقيق:عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، (ج٣ص/ ٢).

٤- آتاه الله تعالى الزبور:

يقول ابن منظور في معنى (الزبور) في اللغة :" والزَّبْرُ الكتابُ والجمع زُبُورٌ ... ومنه قرأَ بعضهم {وآتينا داود زُبُوراً} والزَّبُورُ الكتاب المَزبُورُ والجمع زُبُرٌ كما قالوا رسول ورُسُل وإِنما مثلته به لأَن زَبُوراً ورسولاً في معنى مفعول، قال لبيد:

وجَلا السيولُ عن الطُّلُولِ كأَنها زُبُرٌ تَخُدُّ مُتُونَها أَقْلامُها

وقد غلب الزَّبُورُ على صُحُفِ داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكل كتاب زَبُورٌ قال الله تعالى:{ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكْر}، قال أَبو هريرة : الزَّبُورُ ما أُنزل على داود {من بعد الذكر} من بعد التوراة وقرأَ سعيد بن جبير {في الزُّبُور} بضم الزاي وقال: الزُّبُورُ التوراة والإِنجيل والقرآن، قال: والذكر الذي في السماء. وقيل الزَّبُورُ: فَعُول بمعنى مفعول كأَنه زُبِرَ أَي كُتِبَ..."[١].

ويظهر لنا جليا أنّ الزبور بمعنى مفعول ؛ أي مكتوب، إذا جمع إلى أنه منزل من عند الله تعالى، فهو الكتاب الرابع ، يقول الزمخشري أنه من المعاني المحتملة لكلمة الزبور :" ...أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور"[٢]، وحتى على قول من قال أنه في بعض منه أقوال لداود عليه السلام، فإنه لا يخرج عن كونه وحياً منزلاً على قلبه من عند الله تعالى، يقول ابن عاشور:" والزبور : اسم لمجموع أقوال داوود عليه السلام التي بعضها مما أوحاه إليه وبعضها مما ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم "[٣].

ويؤكد هذا المعنى في أن الزبور كتاب سماوي منزل من عند الله تعالى على داود عليه السلام ما جاء في الحديث كما في مسند الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه و سلم قال : وقرأ عليه أبي أم القرآن فقال :"والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها انها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت" [٤].

---

[١] - لسان العرب (ج٤/ص ٣١٥).
[٢] - تفسير الكشاف (ج١/ص ٣٦٤).
[٣] - التحرير والتنوير (ج٨/ص ٣٣١).
[٤] - مسند أحمد بن حنبل (ج٢/ص ٣٥٧/رقم٨٦٦٧) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير سليمان بن داود فقد روى له أصحاب السنن وهو ثقة جليل.

وما جاء في الحديث أيضا عن واثلة بن الأسقع ان النبي صلى الله عليه و سلم قال :" أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل" [١].

ومما سبق يتبين أنّ الله تعالى أكد على نبوّة داود بأمرين اثنين: أولا: بإيتائه الحكمة، وهي النبوّة على قول كثير من المفسرين، وثانيا: بإنزال الكتاب الرابع – وهو الزبور- على داود عليه السلام، فهو بذلك يعتبر من الأنبياء المعدودين ممن أنزل عليه كتاب- مع أنّ لفظ الآية غير صريح في ذلك-، قال تعالى في شأنه :﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ (سبأ: ١٠)، قال البغوي في تفسيره لهذه الآية :" يعني النبوة والكتاب" [٢] .

٥- أوتي فصل الخطاب:

وجاء في معنى (فصل الخطاب) في الآية أقوال، لعل من أكملها وأشملها قول الماوردي، حيث ذكر أنّ فيها خمسة تأويلات:"

أحدها : على القضاء والعدل فيه ، قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : تكليف المدعي البينة والمدعَى عليه اليمين ، قاله شريح وقتادة .

الثالث : قوله أما بعد ، وهو أول من تكلم بها ، قاله أبو موسى الأشعري والشعبي .

الرابع : أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود .

الخامس : أنه الفصل بين الكلام الأول والكلام الثاني" [٣] .

ولقد جمع رحمه الله تعالى جميع الاحتمالات في معناها، ووجدت أكثر المفسرين يدورون في فلك هذه المعاني.

وعلى أي معنى أخذنا، كان ذلك منقبة وتفضلا من الله تعالى في حق داود عليه السلام، فلابد للملك المتصرف بين رعيته من البيان الشافي الواضح في عبارته، المتسلسل في فصوله، حتى يتضح به

---

[١] - مسند أحمد بن حنبل (ج٤/ص ١٠٧/رقم ١٧٠٢٣) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.
[٢] - تفسير البغوي (ج٦/ص ٣٨٧).
[٣] - النكت والعيون (ج٥/ص ٨٤).

مراده، وحتى يستطيع به من الفصل والقضاء بين الرعيّة بما يقتضيه الحال، وهو من جملة ما علمه الله تعالى وتفضل به على نبيه داود عليه السلام؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، فهنا لم يذكر الله تعالى بعد الحكمة شيئا على الخصوص، بل عموم العلم (مما يشاء)، ثم فصل شيئا في الآية بقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾(ص: ٢٠) ، فأشار الترتيب في ورود (فصل الخطاب) بعد الحكمة في الآية أنها من جملة ما علمه الله تعالى لنبيه داود عليه السلام مما أبهم في الموضع الآخر، والله تعالى أعلم.

٦- صاحب عزم وهمّة قوية في العبادة:

فسّر غير واحد من المفسرين قوله تعالى في شأن داود عليه السلام : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ١٧)على أنها القوة في الطاعة والعبادة : " قال ابن عباس: أي القوة في العبادة"[١]، و "قال مجاهد الأيد القوة في الطاعة. وقال قتادة أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام"[٢]، ويعلق الرازي على ذلك كله فيقول :" أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح ، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه..."[٣].

وقد صح في الحديث وصف النبي – صلى الله عليه وسلم- لداود – عليه السلام- بالقوة في العبادة والصبر عليها ، فلقد روى البخاري بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ

---

[١] - تفسير البغوي (ج٧/ص ٧٥).
[٢] - تفسير ابن كثير (ج٤/ص ٣٨).
[٣] - مفاتيح الغيب (ج٢٦/ص ١٦١).

كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ"[١].

٧- كثير الذكر أواب:

وصفه الله تعالى بذلك في آيات أربع وهي ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾(الأنبياء: ٧٩) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ (سبأ) ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾(ص) .

وفي كلٍّ منها نرى أنّ الأمر المعجز فيها أن الذي يشاركه التسبيح ليس البشر، وإنما الجمادات والطيور، ولهذا حكمة - في نظري- وإشارة إلى أنّ داود كان يحب أن يختلي بربه عند التسبيح والمناجاة، فلذلك لم يذكر في كل الآيات أنّ هنالك أحدا من البشر شاركه في التسبيح، بل كان منفردا عن الخلق – البشر – بالخالق يسبحه ويترنم في ذكره وتمجيده، فكافأه الله تعالى على ذلك بأن زاده من فضله في همّته وعزيمته على الذكر أن سخر له الجبال والطير تسبح معه إذا سبّح.

يقول البغوي :"قوله عز وجل: { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ } أي وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر. قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير... "[٢].

ويقول القرطبي مشيرا إلى هذه المعجزة :" ... قال: " وسخرنا " أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح"[٣] .

---

[١] - البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح المختصر، الطبعة الثالثة، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت،١٤٠٧ – ١٩٨٧، (ج٣/ص ١٢٥٧/رقم ٣٢٣٨).

[٢] - تفسير البغوي (ج٥/ص ٣٣٤).

[٣] - تفسير القرطبي (ج١١/ص ٣١٩).

وهاهنا نكتة تفسيريّة، لم أجد أحدا من المفسرين أشار إليها، وهي أنّ الأمر الواقعي في الآية ينسجم تماما مع طبائع المخلوقات التي فطرها الله تعالى عليها، وهو أنّ الطير لا تنشط للطيران إلا مع إشراق أول خيط نور للشمس، حينها تسعى الطيور إلى أرزاقها، وتصطفُ أجنحتها في الهواء، إذ بالليل لا تكون على هذه الحال، بل تكون ساكنة نائمة.

ومعلوم أن التسبيح فعل لا يقوم به إلا المتيقظ له من صالحي البشر والحيوانات ، فالنوم يسكت آلة التسبيح – أيا كانت-، لذلك ناسب ذكر الطير في الآية (١٩) من سورة (ص) بعد ذكر الإشراق في نهاية الآية التي قبلها، ولذلك نرى أن ذكر الجبال مقدم على الطير لاستمرارها بالتسبيح معه على كل حال وفي كل الأوقات ، إذ هي من الجمادات التي لم يذكر أن النوم ينال منها، وهذا مما يدرك بالعقل أيضا.

ومما يؤكد ما ذهبت إليه في أنّ الطير إنما تقوم بالتسبيح حال يقظتها؛ ما جاء في قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (النور)، وقوله تعالى : ﴿ ...يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحشر)

فالتسبيح في الآيتين شمل جميع المخلوقات (صالحو الإنس والجنّ والجمادات والحيوانات والطيور أيضا) فلماذا أعاد وكرّر ذكر الطير في الآية الأولى ، ليس هذا إلا من باب ذكر الخصوص بعد العموم من باب التنبيه على أمر ما، وهو – على ما يبدو لي- أنّ الطير إنما يكون تسبيحها وهي مصطفّة الأجنحة في الهواء، والله تعالى أعلم.

يقول القرطبي في معنى (صافّات) :" ومعنى " صافات " مصطفات الأجنحة في الهواء"[١] .

وزيادة في الوصف دقة يقول ابن عاشور:" والمراد هنا أن الطير صافّة أجنحتها فحذف المفعول لعلمه من الوصف الجاري على الطير إذ لا تجعل الطير أشياء مصفوفة إلاّ ريش أجنحتها عند الطيران فالطائر إذا طار بسط جناحيه ، أي مدها فصفتّ ريش الجناح فإذا تمدد الجناحُ ظهر ريشه مصطّفاً فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به"[٢] .

---

[١] - تفسير القرطبي (ج١٢/ص ٢٨٧).
[٢] - التحرير والتنوير (ج١٥/ص ٢٩٦).

ويقول ابن كثير في شرح آلية تسبيحها :" وقوله تعالى: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ} أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه..."[١] .

فعلم من ذلك كلّه أن تسبيحها يكون حال طيرانها، وهي لا تبدأ الطيران إلا مع إشراق الصباح، فأعيدُ للفائدة أن ناسب لأجل ذلك كلّه ذكرُ التسبيح عند الإشراق قبل ذكر الطير لينبه على ذلك.

وأنا لم أذكر هذا الموضوع – تسبيح الطير ووقته وآليته- إلا لأنبِّه على أنّ فيه إشارة إلى أنّ داود كان دائم الذكر: في النهار، وعند هدوء الأصوات ووقوع السكون – النوم – بين المخلوقات، فلا يجد حينها من يشاركه التسبيح إلا الجمادات، فكان – عليه السلام – من الذاكرين عند غفلة الخلق عن الذكر – وكذلك هم الأنبياء – عليهم السلام -، فناسب وصفه بكثرة الذكر والله تعالى أعلم.

[١] - تفسير ابن كثير (ج٣/ص ٣٦١).

المطلب الثالث : النبي الملك سليمان عليه السلام:

ذكر القرآن الكريم الملوك الصالحين وطريقة وصولهم إلى الملك، فطالوت كان من عامّة الشعب، ولم يكن لهذا الشعب دولة ولا ملك ، فجاء الاختيار الإلهي لهذا الملك رغم الاعتراض الشعبي – إن صح التعبير- ، فتأسَّست على يديه المملكة الأولى لبني إسرائيل بإذن الله تعالى، وانتصرت على أول عدوٍ لها، ثمّ جاء الاختيار الإلهي للملك داود عليه السلام والذي كان له قاعدة شعبيّة عريضة، وقبول في أوساط مجتمع بني إسرائيل، حيث أنه من قتل رأس العدو الملك الطاغية جالوت، فلم يجدوا ولن يجدوا في ذاك الزمان بعد الملك طالوت أفضل منه لاستلام عرش المملكة، ثمّ بعد ذلك جاء عصر الملك الوراثي، والذي طوّعت النفوس عليه لاعتيادها على تلقي الأوامر خلال عصرين ملكيين ، والألفة على وجود ابن للحاكم يشاركه الحكم، ويظهر أثر العدل على يديه حتى في أثناء حكم أبيه، مما جعل له شعبية ومكّن لفكرة انتقال الملك وراثة من الأب لابنه، فكان المثال الوحيد في القرآن الكريم للملك الوراثي الأول الصالح على الإطلاق – مما ذكر في القرآن-

- من صفاته وإنجازاته وأسباب صلاحه :

١- نشأ في بيت النّبوّة :

وهب الله تعالى لداود – عليه السلام – ابنا ذكرا أسماه سليمان، وذكر الله تعالى أنّ النعمة بسليمان على داود نعمة عظيمة تستحق الوصف بالهبة من عنده سبحانه ، وليس كما ذكر بعض المفسرين أن الهبة هنا بمعنى مجرد الإعطاء، ويصرف المعنى أن الهبة المرادة هنا منحصرة بالإنعام بالذرية على عباده، " قوله عز وجل { ووهبنا لداود سليمان } يعني أعطينا لداود سليمان، وروي عن ابن عباس أنه قال أولادنا من مواهب الله عز وجل لنا، ثم قرأ و { يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور } فوهب الله تعالى لداود سليمان"[١] ، قلت: هذا تضييق للمعنى، فإن الهبة هنا تميّزت بما كان عليه سليمان – عليه السلام – من صفات جعلته أهلا للنبوة والملك، لا مجرد نعمة الذرّيّة.

[١] - السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد (٣٧٣ه)، بحر العلوم، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر – بيروت، (ج٣/ص ١٥٩).

وهذا الموهوب نشأ في بيت داود – عليه السلام – الذي جمع الله تعالى له الملك والنبوّة والعلم، وآتاه الله الكتاب (الزبور)، فأقام الشرع بين رعيته، وقضى بينهم بالحق، مع ما تميّز به من العبادة والزهد وكثرة الذكر والتسبيح، مع ما كان ينزل به الوحي عليه.

كلّ هذه الخصائص في البيت النبوي كانت مدعاة كي ينشأ سليمان – عليه السلام – نشأة دينيّة نبويّة على فقه ودراية بشرع الله تعالى.

نعم؛ لقد نشأ سليمان – عليه السلام – على خطا أبيه الملك النبي في العبادة والعلم حتى وصل به الأمر إلى المشاركة في القضاء في زمن أبيه – عليهما السلام -.

أما ما جاء في التفاسير أنه كان لداود عدد من الأبناء الآخرين سوى سليمان – عليه السلام – كما قاله غير واحد من المفسرين ، مثل ابن كثير إذ يقول :"يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيا كما قال: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ } أي: في النبوة وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر"[١]، هذا الأمر – بأنّ عنده مائة امرأة- ثابت في سليمان عليه السلام[٢]، ولم يثبت ذلك في حقّ داود عليه السلام، فلعلّ الأمر أشكل على ابن كثير رحمه الله، فجلّ ذلك من الروايات الإسرائيلية التي لا تُثبِت حقا ولا تدفع شرا، ولأنّ القرآن لم يذكر أن لداود ذريّة غير سليمان – عليهما السلام – لذلك عبّر عنه بالهبة، وامتنّ به على داود – عليه السلام -، ولا نثبت إلا ما جاء في كتاب ربّنا.

٢- فطنته ومشاركته في الحكم في زمن ملك أبيه:

لابد لمن اجتمع له ما اجتمع لسليمان – عليه السلام – من النشأة في بيت النبوّة والملك - بعد هداية الرحمن بالتأكيد - أن يكون فطنا في أمور مملكة أبيه وما يجري من حوله، فإن هذا أشبه بالمران لسليمان – عليه السلام – على أمور الحكم وسياسة شؤون الدولة والرعيّة.

لذلك نجد أنّه – عليه السلام – قد أفاد من هذه التجربة، فأصبح يشارك أباه في القضاء بين الرعية، وبما أولاه الله تعالى من الفهم صار حكمه متميّزا على حكم أبيه، مع ما لداود – عليه السلام - من فضل وعلم، فالابن صنو أبيه.

[١] - تفسير ابن كثير (ج٤/ص ٤٢).
[٢] - البخاري، محمد بن إسماعيل،(٢٥٦)ه، صحيح البخاري، الطبعة الثالثة، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة –بيروت، ١٤٠٧-١٩٨٧، (ج٣/ص ١٠٣٨/ رقم ٢٦٦٤).

يقول البغوي : " قوله عز وجل : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } أي علمناه القضية وألهمناها سليمان، {وَكُلا} يعني داود وسليمان، { آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده..."[١]، ولا أريد الخوض بما جاء عند المفسرين من خلاف ونقولات من هنا أو هناك وما تفرّع عن ذلك؛ كقولهم: هل كان حكمهما أو أحد منهما عن اجتهاد أم عن وحي من عند الله تعالى؟ فليس هذا مرادي هنا، إنما أردت أن أشير إلى أنّ سليمان – عليه السلام – قد أنمى الله تعالى فطرته وزاد في فهمه حتى امتدح حكمه بجوار حكم أبيه، وما أرى ذلك إلا إشارات لأبيه - عليه السلام – ولبني إسرائيل على حدٍّ سواء في أن الملك القادم هو سليمان – عليه السلام -، والله تعالى أعلم.

٣- وريث النّبوّة والعلم والملك بل هو أعظم الملوك من البشر:

سليمان من نسل داود عليهما السلام، فهو ابنه وهبة الله تعالى إليه، ولم يثبت في نقل صحيح أن له ابناً آخر سواه - كما سبق تفصيل ذلك - ، فانتقال الملك من داود إلى سليمان عليهما السلام، انتقال وراثي بالنسب.

وكل من أنكر من المفسرين انتقال الملك وراثيّا إلى سليمان – عليه السلام – ارتكز على أمرين – وسبق أن ذكرت ذلك -، أحدهما : عموم لفظ النبي – صلى الله عليه وسلم – في أن معشر الأنبياء لا يورّثون، وأنّ ما تركوه من بعدهم يعدّ صدقة، وقد بيّنت أنّ أهل العلم في فهم هذا الحديث وتوجيهه مختلفون، فمنهم – اختصارا- من رأى ذلك على إطلاقه، ومنهم من رأى أنّ ذلك فعل الأكثر والأغلب منهم . وثانيهما : أنّ لداود – عليه السلام - ذرّية أخرى سوى سليمان – عليه السلام -، فكيف يخص سليمان بالإرث دون إخوته، وقد بينت فيما سبق أنّ جميع الروايات في ذلك عند المفسرين من إرث أهل الكتاب، ولا يصح في ذلك شيء، وربنا سبحانه لم يمتن بالذريّة على داود – عليه السلام – إلا بسليمان – عليه السلام – كما في القرآن الكريم، فالأظهر بالنسبة لي أن لا ننسب لداود ذرّيّة أخرى سوى سليمان إلا بنص صحيح، وليس لهذا النص من وجود، وقد يقال في هذه المسألة : لا ننفي ولا نثبت، ولكن الذي يظهر لي أن النفي أولى، والله تعالى أعلم.

[١] - تفسير البغوي (ج٥/ص ٣٣٣).

٤- كثير الإنابة والحمد والرجوع إلى الله تعالى:

وهذا واضح ومبيّنٌ في القرآن في آيات عدة، أذكرها على الترتيب: وهي قوله تعالى : ﴿...وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (النمل) ﴿...وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾(النمل) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (النمل) ﴿...فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾(النمل) ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾(ص) ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾(ص) ﴿... ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (ص).

فالإذعان لله تعالى وإرجاع الفضل كلّه له، وشكره على نعمه، والتضرع له وسؤاله تعالى الرحمة والمغفرة، كل هذه كانت من صفات النبي والعبد الصالح الملك سليمان – عليه السلام -، لذلك امتدحه الله تعالى بقوله ﴿...نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (ص) ، يقول ابن كثير: " وقوله تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل"[١]، والعجيب في الأمر أنّ هذا الوصف جاء في أشد الناس في مدّة البلاء وهو أيوب - عليه السلام -، وفي أعظم الناس ملكا ونعمة وهو سليمان – عليه السلام -، فهي رسالة قرآنيّة واضحة في أنّ المُنعمُ عليه الشاكرُ كالمبتلى الصابر في الأجر والمنزلة، وأنّ كلا الأمرين امتحان، فاز فيه من فاز، وقد نقل القرطبي في ذلك عن سفيان فقال : " وسئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء، لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر

[١] - تفسير ابن كثير(ج٤/ص ٤٢).

والآخر شاكر ثناء واحدا، فقال في وصف أيوب: " نعم العبد إنه أواب " وقال في وصف سليمان: " نعم العبد إنه أواب "[١].

٥- مجاهد في سبيل الله تعالى:

بل قائد جيش المجاهدين، ورافع لواء التوحيد والقتال في ذاك الزمان، فهو ملك سخّر ملكه لنشر دين الله تعالى والدفاع عن حوضه، وإقامة شرعه، فلم يكن ليسمح بوجود من يشرك بالله تعالى في زمانه وإن كان من أهل الملك، فهو أهل لدفع ذلك حتى وإن اضطر للقتال، فقد أوتي ما لم يؤته أحد من العالمين من أسباب الملك وأنواع الجند.

لذلك نجد أنّ القرآن صوّر لنا جيش سليمان المتآلف المتناسق على ما يحتويه من أصناف الجند المختلفة في الجنس واللغة والحركة والخلقة، والتي لم ولن تجتمع لأحد من الخلق على الإطلاق فقال الله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(النمل) ، وقد صوّر أيضا عظم سير هذا الجيش المهيب للمعركة للتنويه على القوة التي أولاها الله تعالى لسليمان – عليه السلام -، فقال تعالى: ﴿ ...حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(النمل) ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾(النمل) ، وقد قال القرطبي : " وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد"[٢] .

٦- القوة والحزم في إدارة الدولة والجند:

لابد لكل ملك من هاتين الصفتين حتى تجتمع الرعية والجند عليه، فالقوّة في اتخاذ القرارات وإدارة شؤون البلاد، واتخاذ مبدأ الحزم في التعامل مع الجند على وجه الخصوص، هو ما يميّز

---

[١] - تفسير القرطبي (ج١٥/ص ٢١٥).
[٢] - تفسير القرطبي (ج١٣/ص ١٨٩).

الملك القويّ، طبعا مع ما يجب أن يتوافر في شخصية الملك من صفات أخرى مثل العدل والعفو...، فليس كل إنسان يصلح أن يكون ملكا.

لذلك كان هنالك مظاهر لهاتين الصفتين في القرآن الكريم، حاولت جهدي أن أحصرها فيما يلي :

١) الانضباط العسكري والقوة الضاربة :

وهو واضح في قوله تعالى واصفا حال الجند في جيش سليمان حال السير إلى المعركة : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النمل)، فالجيش عظيم القوّة والعدد، متفرق الأجناس، متآلف على غير العادة لو كان في الزمان مثيله، فمثل هذا الجيش تصعب السيطرة عليه وعلى تحرّكاته، فهناك من الجند من يمشي على رجلين، ومنهم من يطير بجناحين، ومنهم ما الله أعلم بكيفيّة سيره من الجنّ، فلك أن تتخيّل تلك الحركات المختلفة باختلاف الجنس والنوع والأعضاء والقوة، فكان لابد من الانضباط العسكري، ولكن كيف السبيل إلى ذلك مع كل هذا الاختلاف والتنوّع، إنّه العلم الذي علّمه الله تعالى لنبيّه سليمان – عليه السلام – والذي استطاع بفضله أن يؤلف بين جميع هذه الأجناس في جيشه، فجعل من كل نوع نقباء يقومون على ترتيب صفوفهم حتى يتناسق الجيش في مسار واحد، لا يتخلّف عنه أحد، ولا يشذّ عن الصف أحد، وإلا لضاع النظام بين العسكر، ولتفككت تلك القوّة الضاربة جيش سليمان – عليه السلام - ، قال القرطبي : " قال قتادة: كان لكل صنف وزعة في رتبتهم ... والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم"[١]، ويقول سيد طنطاوي : "فالتعبير بقوله { يُوزَعُونَ } يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثرتهم ، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفراده إلى جادة الصواب"[٢] .

[١] - تفسير القرطبي (ج١٣/ص ١٦٧).
[٢] - الوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص: ٣٢٠٥).

٢) التهديد والتشديد بالعقوبة لكل مخالف:

وهذا واضح جليّ من خلال قول سليمان – عليه السلام – بعد أن اكتشف غياب الهدهد عن موقعه في الجيش، ولم يكن قد استأذن لذلك، مما استدعى غضب سليمان - عليه السلام -، فقال الله تعالى حكاية عنه :﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: ٢١)، كيف لا يفعل ذلك والجيش يستمع لسليمان عليه السلام وينتظر ردّة فعله على غياب الهدهد، فإن تساهل مع هذه الحادثة، فسينعكس ذلك سلبا على من تبقى من الجند، وسيكون ذلك مدعاة للتسيب والفرار من بين صفوف الجيش، إذ لا عقوبة على ذلك.

ولكن نجد أنّ الأمر عند هذا الملك العظيم على العكس من ذلك تماما، فما كان ليتأخر في علاج هذا التسيب حتى لا يستفحل بالجيش، بل على الفور أصدر التهديد بالعقوبة، وأنّه لن يمرّر هذه الحادثة دون أنّ يكون هنالك حساب وسؤال.

ولكن النبي الملك العادل لم يكن ليظلم الهدهد وهو لم يستمع بعد لعذره، فلذلك جعل له مخرجا بالعذر بأن يأتي بخبر مؤكد صادق يبرّر غيابه الواضح أمام الجيش، حتى تسكن نفوس الجند إلى أنّ العفو لم يكن ليتم لولا هذه البيّنة، وهذا من ذكاء سليمان عليه السلام، حيث أنّه قد حفظ خط الرجعة في حال ثبوت العذر بالنسبة للهدهد.

يقول سيد قطب : " ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف : { لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه } ..."[١] .

٣) مبدأ التأكد والتثبت والرويّة قبل اتخاذ أي قرار:

كم جلبت العجلة في اتخاذ القرار من تبعات، وكم من الناس ظلم بسبب ذلك، لذلك ينبغي أن تكون من أهم صفات الملوك التروّي والتثبّت قبل الوقوع فيما لا يحمد عقباه، وهذا ما فعله النبي الملك سليمان عليه السلام مع الهدهد، فغضب سليمان كان في موضعه بسبب الخلل الذي أحدثه غياب الهدهد عن موقعه في الجيش، ومع ذلك لم يمنع هذا سليمان من الاستماع

[١] - في ظلال القرآن (ج٥/ص٢٦٣٦).

إلى عذر هذا الجندي الضعيف، ثمّ لم يكن سليمان ليلقي الكلام هكذا جزافا، بل طلب أن يكون العذر قويّا واضحا صادقا، ليس محض كذبة للتهرب من العقاب، وإلا لكان الملك سليمان عليه السلام واقعاً في الغفلة – حاشاه وكلا-، ويمكن حينها لأيّ جندي أن يمرّر عليه أي عذر كان وتنتهي المعضلة، لم يكن سليمان عليه السلام من الغافلين، بل كان من أهل اليقظة وإلا لما كان ملكه عظيما – بعد فضل الله تعالى -، لذلك لما بيّن الهدهد عذره، اختبر سليمان عليه السلام هذا العذر بالصدق من عدمه كما جاء في القرآن حكاية عنه : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (النمل)، يقول الشنقيطي:" قضية الهدهد وسبأ مع نبي الله سليمان لما جاء يخبرهم، وكان عليه السلام لم يعلم عنهم شيئاً، فلم يكذب الخبر بكونه من الهدهد ولم يصدقه، لأنه لم يعلم عنهم سابقاً، مع أنه وصف حالهم وصفاً دقيقاً، وكان موقفه عليه السلام موقف التثبت، مع ما لديه من إمكانيات الكشف والتحقيق من الريح والطير والجن. فقال للمخبر وهو الهدهد: سننظر، أصدقت أم كنت من الكاذبين"[١].

٤) <u>أسلوب المراسلات الملكية</u> :

النبي الملك سليمان عليه السلام لعلّه هو أوّل نبيّ راسل الملوك كتابة – والله تعالى أعلم-، فلم تأت رواية صحيحة أنّ أحدا من الأنبياء قبله فعل ذلك، وقد راسل نبيّنا – صلى الله عليه وسلم – ملوك زمانه داعيا إيّاهم إلى الإسلام، وقد اشتركا – عليهما الصلاة والسلام – في بعض الصفات المتشابهة في كتابة مثل هذه الرسائل إلى الملوك، من ذكر اسم المرسل والبسملة والايجاز في بيان المقصود، والكتابة بلغة النبي، فإن هذا علامة عزّة المرسل بما يحمله ويدعو إليه، يقول أبو إسحق الثعلبي :" ...قال قتادة : وكذلك الأنبياء عليهم السلام كانت تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون..."[٢] ، وقد ظهر من حنكة سليمان عليه السلام ابتداء القوم في مملكة سبأ بالمراسلة قبل المنابذة، فإن ذلك أدعى لتوفير الجهد والوقت، واستنفاد جميع الحلول قبل الحلّ العسكري، وهذا واجب كلّ ملك وحاكم أن لا يدخل بلده في صراع خارجي ما دام هنالك حلول تغني عن ذلك، وقد كان لسليمان ما أراد،

---

[١] - أضواء البيان (ج٨/ص ٢٢٩).

[٢] - الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد (٤٢٧ه)، الكشف والبيان، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م،(ج٧/ص ٢٠٥).

وكانت هذه المراسلة هي مفتاح إسلام مملكة بأسرها، واستجلاب ما فيها من خيرات لصالح المسلمين، يقول ابن عاشور :" ألهم الله سليمان بحكمته أن يجعل لاتصاله ببلاد اليمن طريقَ المراسلة لإدخال المملكة في حيّز نفوذه ... فكتب إلى ملكة سبأ كتاباً لتأتيَ إليه وتدخلَ تحت طاعته وتُصلح ديانة قومها"[1].

٧- إقامة العدل حتى عند الغضب:

تبدو هذه الصفة جليّة في تعامل سليمان عليه السلام مع تغيّب الهدهد، فلم يظلم مع غضبه ولم يصفح، وإنّما أخذ بمبدأ العدل، فهو نبي الإسلام في ذاك الزمان، وهو أجدر بالعدل من غيره ، كما قال ذلك نبيّنا ورسولنا محمد – صلى الله عليه وسلّم – حينما قال له ذو الخويصرة – ذاك الظالم لنفسه - (اعدل يا محمد)، فقال – صلى الله عليه وسلّم - : " ويلك من يعدل إذا لم أعدل"[2]، وكذلك الحال مع النبي الملك سليمان عليه السلام، فهو أحقّ بالعدل في زمانه من غيره، لذلك لم يظلم الهدهد، بل أمهله حتى يأتي بدليل صادق على براءته من التقصير في واجبه، يقول سيد قطب : " ... ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض ، إنما هو نبي . وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره . . ومن ثم تبرز سمة النبي العادل : { أو ليأتيني بسلطان مبين } . أي حجة قوية توضح عذره ، وتنفي المؤاخذة عنه"[3] .

٨- رحمته بالضعفة من رعيته والحرص عليها:

وذلك في تعامله مع ذلك المخلوق الضعيف، النملة التي كانت تمثّل شعبها بخطابها الموجّه لهم خوفا على حياتهم من أن يبادوا تحت أقدام جيش سليمان عليه السلام، فظهرت منّة الله تعالى على هذا النبي الملك في سماعه لحديثها، وذلك في حدّ ذاته من فضل الله تعالى عليه أن مكّنه من حفظ حقوق أقل الرعية مكانة وقدرة وقدرا، وهو ابتلاء واختبار منه سبحانه لنبيه هل يشكر هذه النعمة بحفظ حقها وجماعتها، أم تراه لا يعبأُ بما يجري لها ولجماعتها؟

---

[1] - التحرير والتنوير (ج١٠/ص ٣٤٩).
[2] - صحيح البخاري (ج٥/ص ٢٢٨١/كتاب الأدب- باب : ما جاء في قول الرجل ويلك- رقم٥٨١١).
[3] - في ظلال القرآن (ج٥/ص ٣٨٠).

نجح سليمان عليه السلام في هذا الاختبار ليثبت للعالم أنّ الملك الصالح لا ينسى أضعف فرد في رعيته حتى وهو في أوج قوّته ومجده، وإلا لما كان جديرا بالملك ولا بصفة الصلاح فيه، قال ابن جزي :" فتبسم ضاحكا تبسم لأحد أمرين أحدهما سروره بما أعطاه الله والآخر ثناء النملة عليه وعلى جنوده فإن قولها "وهم لا يشعرون" وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان"[١] ، ويقول محمد أبو زهرة :" سمع سليمان كلامها : فتبسم ضاحكا من قولها... حال مؤكدة لمعنى القسم ، وهو يتضمن معنى التعجب من حرصها واهتدائها إلى النتيجة لمرور الجيش عليها ، وعلى صواحبها ، وإن ذلك دفعه لأن يتجه إلى ربه الذى أعطاه وأباه ما أعطى فقال : (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، لم يغتر ، ولم يفخر ، ولم يفاخر ، بل عرف حق النعمة واتجه إلى شكرها..."[٢].

٩- حفظ الله تعالى لمملكته:

لما كانت مملكة سليمان عليه السلام في اتساع، ومكّنه الله تعالى من حكم الجنّ والشياطين وكانوا من جملة جيشه، لم يكن سليمان عليه السلام ليتمكّن من رقابهم وإرغامهم على طاعته وتنفيذ أمره إلا بفضل من الله تعالى، إذ من عادة الشياطين فعل المعصية، هم عصوا الله تعالى ابتداء، فهل سيمتنعون عن معصية غيره، بالتأكيد لا، ولكنّ الله تعالى حاط ملك سليمان عليه السلام بحفظه، فمنع أيّ تسيّب محتمل من الجن، وأكّد عليهم ذلك بالعذاب لمن خرج عن طاعة نبيّه، فتمّ حفظ مملكته من الفوضى والتشرذم بفضل الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾(الأنبياء) ﴿ ...وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾(سبأ)، يقول ابن عاشور :" ومعنى { وكنا لهم حافظين} أن الله بقدرته سخرهم لسليمان ومنعهم عن أن ينفلتوا عنه أو أن يعصوه ، وجعلهم يعملون في خفاء ولا يؤذوا أحداً من الناس؛ فجمع الله بحكمته بين تسخيرهم لسليمان وعلمه كيف

[١] - التسهيل لعلوم التنزيل (ج٢/ص ٣٠٤).
[٢] - زهرة التفاسير (ص: ٥٤٤٥).

يَحكمهم ويستخدمهم ويطوعهم ، وجعلهم منقادين له وقائمين بخدمته دون عناء له ، وحال دونَهم ودونَ الناس لئلا يؤذوهم"[١].

[١] - التحرير والتنوير (ج٩/ص ٢٧٠).

المطلب الرابع: المَلك الصالح ذو القرنين :

هل كان العبد الصالح والقائد الذي بلغ عدله المشرق والمغرب (ذو القرنين) ملكاً أو لا ؟

• لقد اختلف أهل العلم من المحدّثين والمفسّرين في شأنه اختلافا كبيرا، وسأحاول أن أوضح الخلاف في ذلك ما استطعت ، فاختلفوا ابتداء في هويّته :

١- ذهب بعض أهل العلم أنّ ذا القرنين هو الاسكندر اليوناني، وذكره ابن إسحق، وقال ابن حجر في الفتح:" لذلك اشتهر على الألسنة لشهرة السيرة لابن إسحاق" [١] .
٢- وذهب الآخرون إلى أنّه رجل من العرب واختلفوا في اسمه، واحتج ابن حجر على ذلك بكثرة ذكره في أشعار العرب[٢] .
٣- وذهب قلّة منهم أنه كان من الملائكة[٣]، وهو قول مرجوح لا يحتاج إلى ردّ.

• ثمّ اختلفوا في نبوّته :

١- فذهب بعض أهل العلم إلى أنه كان نبيّا[٤] .
٢- وذهب آخرون منهم أنه إنما كان عبدا صالحا، ولم يكن نبيّا، ويحتجّ له بما صحّ عن علي رضي الله تعالى عنه في إنكار نبوّته[٥] .

---

[١] - ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (المتوفى : ٨٥٢هـ)، فتح الباري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية)،(ج٦/ص ٣٨٤).
[٢] - فتح الباري- تعليق ابن باز (ج٦/ص ٣٨٤).
[٣] - ذكره أبو حيان الأندلسي وأنكره في البحر المحيط (٦/ ١٥٠).
[٤] - ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي (٦٧٥-٧٧٥ه)، اللباب في علوم الكتاب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م. (ج١٢/ص ٥٥٨).
[٥] - الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد (٦٤٣ه)، الأحاديث المختارة، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ه، تحقيق : عبد الملك دهيش، بيروت-لبنان، دار خضر للطباعة،(ج١/ص ٣٠٤)وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (ج٦/ص ٣٨٣).

• ثمّ اختلفوا فيه أكان ملِكا أو لا :

١- فذهب بعض أهل العلم إلى أنّه كان ملكا، واحتجّ بعضهم بحديث رواه ابن أبي حاتم[١] والشيرازي في الألقاب، ونقله السيوطي عنهما[٢] ، والحديث لا يصح ، ولكن صحّت الرواية في ذلك عن مجاهد كما في مصنف ابن أبي شيبة، كما سيأتي لاحقا.

٢- وذهب آخرون منهم أنه إنما كان عبدا صالحا، ولم يكن ملكا، كما ورد في الصحيح عن علي رضي الله عنه[٣] .

وقد بسط القول في ذلك – نوعا ما – محمد خير رمضان يوسف في مؤلف أفرده عنه، وردّ الأقوال في تحديد شخصيّته على التحديد، بل خلص إلى أنه (ذو القرنين القرآني) وليس أي شخص آخر ممن ذكر في كتب التاريخ أو عند بعض المفسرين على التعيين[٤] ، ويكفينا أن نعلم أنّ ذا القرنين كان ملكا صالحا مسلما لله تعالى، ولم يكن الاسكندر المقدوني إلا كافرا، ولم يرد دليل واحد على إسلامه، يقول الفخر الرازي : " مثل هذا الملك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو إلا أن فيه إشكالاً قوياً وهو أنه كان تلميذ أرسطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاليس حق وصدق، وذلك مما لا سبيل إليه، والله أعلم"[٥] .

[١] - ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد (٣٢٧ه)، تفسير القران العظيم، الطبعة الثالثة، تحقيق : أسعد محمد الطيّب، مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة السعوديّة، ١٤١٩ه، (ج٩/ص ٢٢٩): عَنْ الأحوص بن حكيم، عَنْ أبيه، إِنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سئل عَنْ ذي القرنين؟ فقال: "هُوَ ملك مسح الأَرْض بالإحسان"، والأحوص ضعّفه الذهبي وقال:" قال ابن معين: لا شيء. وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن المديني: ليس بشيء.لا يكتب حديثه"، انظر: الذهبي، محمد بن أحمد (٧٤٨ه)، ميزان الاعتدال ، تحقيق علي محمد البجاوي المجلد الاول، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان. (ج١/ص ١٦٧). ، وكذلك الحال مع أبيه، قال الذهبي عنه : "ضعفه أحمد وغيره لكثرة ما يغلط، وكان أحد أوعية العلم، وقال ابن حبان: ردئ الحفظ، لا يحتج به إذا انفرد" ، ميزان الاعتدال (ج٤/ص ٤٩٨).

[٢] - الدر المنثور (ج٥/ص ٤٣٦).

[٣] - الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (ج١/ص ٣٠٤) وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (ج٦/ص ٣٨٣).

[٤] - محمد خير رمضان يوسف،(١٤١٥-١٩٩٤)، ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، الطبعة الثانية، دمشق، دار القلم(ص٣٥٣).

[٥] - مفاتيح الغيب (ج٢١/ص ١٤٠).

وأمّا بالنّسبة لكونه نبيّاً، فإنّه لم يصحّ في ذلك شيء مما أورده أصحاب هذا القول، وأما بالنسبة لكونه ملكاً، فقد صحّت رواية واحدة عند ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : (كان ملك الارض)[١]، ولم أجد غيرها، وعلى هذا درج معظم أصحاب التفسير على اعتباره ملكا من الملوك الصالحين الذين حكموا في الأرض، مع اختلاف وتفاوت في أدلتهم ما بين الصحّة والضعف، والذي يعنيني هنا أنّه ورد ما يثبت المُلك في حقّه.

ومن تأمّل سياق الآيات الكريمة في سورة الكهف، والتي تتطرق لقصّته، يجد أنّ ألفاظها ونسقها العام لا يدلّ إلا على ذلك المُلك العظيم الذي أعطاه الله تعالى لذي القرنين، فاستطاع به بسط نفوذه على المشرق والمغرب.

كان ذو القرنين ملكا وقائداً عسكريّاً فذّاً، بلغ ملكه وعدله بقيادة جيشه مشرق الأرض ومغربها، فأصلح فيها ما فاسدا، وأحسن إلى محسنها، وأوقع العقاب على من تجبّر وأفسد فيها، قال تعالى عنه : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ (الكهف)، يقول ابن جزي : " التمكين له أنه ملك الدنيا ودانت له الملوك كلهم"[٢]، وقال ابن كثير : " أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها"[٣].

---

[١]- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد (٢٣٥ه) المصنف، الطبعة الأولى ، تحقيق: حمد الجمعة، ومحمد اللّحيدان، ١٤٢٥-٢٠٠٤م، (ج١١، ص٩٦، كتاب الفضائل).

[٢]- التسهيل لعلوم التنزيل (ج٢/ص ١٤٩).

[٣]- تفسير ابن كثير (ج٣/ص ١٢٤).

المطلب الخامس : المَلك في سورة يوسف :

لم يتكلم القرآن في كفره أو إيمانه، وإنما جاء ما يدلّ على إنصافه وعدله بين الناس، ولقد جاء ذكره في نهاية قصّة سجن يوسف عليه السلام، وذلك عندما ابتدأ الأمر برؤيا المَلك، فلمّا عبّرها نبي الله عليه السلام، ابتدأ دوره في قصّة يوسف عليه السلام.

- من صفاته ومظاهر عدله :

١- عدله وإحقاقه للحق :

يتّضح ذلك عندما وقع الظلم في حقّ يوسف عليه السلام ووضع في السجن، وذلك بعد قصّته مع امرأة العزيز وباقي النسوة، فسجن دون أيّ ذنب منه، فلم يعلم الملك ابتداء بما حدث إلا عندما وصل الأمر إليه، وذلك بعدما أُعجِب بتفسير يوسف عليه السلام للرؤيا، فأراد أن يراه، فلم يرض يوسف عليه السلام بأن يخرج من السجن كمعفوٍّ عنه لأنّه لم يقترف ذنبا، ولكن أراد أن يخرج وقد سبقته براءته وطهارته مما نسب إليه، لذلك نبّهه إلى معرفة سبب سَجنِه بقوله لرسول الملك إليه : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (يوسف)، حينها علم الحقيقة واستقصى الأمر، وسمع من الأطراف الأخرى كلها حتى ظهر له من اعترافات النسوة أنّ يوسف بريء مما نسب إليه، فأقام الحقّ، وأنصف يوسف عليه السلام بأن أخرجه من السجن، وعوّضه عن ذلك بالحظوة التي جعلها له في مملكته.

٢- نباهته في التعرف على إمكانات الآخرين والإفادة منها:

نلمس ذلك بعدما علم الملك ببراءة يوسف، وعفّته، وعلمه، فنظر إليه كثروة علميّة وطنيّة تنفع البلاد، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يوسف)

وعلم الملك قيمة ونفاسة يوسف عليه السلام، فلم يكن ليدع من هذه حاله دون الاستئثار به وبعلمه، حتى تستفيد منه البلاد والعباد، وكان للملك ما أراد، يقول ابن عاشور : " فلما رأى (أي الملك) حسن منطقه وبلاغة قوله وأصالة رأيه رآه أهلاً لثقته وتقريبه منه ،وهذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال ، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة؛ إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه ، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير؛ والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة ، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة ، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها . وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير"[١].

[١]- التحرير والتنوير (ج٧/ص ٣٦٠).

المطلب السادس : ملكة سبأ :

هي الملكة التي تحدّث القرآن عن خبرها مع النبيّ الملك سليمان عليه السلام، وكيف أنّها كانت في بداية شأنها - قبل أن تلتقي سليمان عليه السلام- قائمة هي ومملكتها على عبادة الشمس من دون الله تعالى، وملخّص قصّتها: أنّ الهدهد عندما نقل خبرها إلى النبيّ الملك سليمان عليه السلام، وأعلمه بما هي عليه من الكفر، ما كان من سليمان عليه السلام إلا أن أرسل بكتابه إليها، وابتدأت بذلك الأحداث إلى أن انتهت بإسلامها، ودخول مملكتها ضمن مملكة سليمان بفضل الله تعالى، وما أولاه لعبده من النعم، ومنها العلم الذي كان له الأثر الكبير في إسلامها، ولا أريد أن أذكر تفاصيل القصّة ، فإن قصة سليمان عليه السلام معها مشهورة وقد سطّرت في العديد من المؤلفات، ولكن الذي يعنيني هنا في هذا المطلب هو مظاهر عدلها وثبات حكمها، ولا أقول (صلاح)، إذ معيار الصلاح في القرآن صحة الاعتقاد.

- من مظاهر عدلها وثبات ملكها :

١- سعة ملكها وعظم عرشها :

كانت واسعة الثراء عظيمة الملك، فكانت هدايتها على يد ملك أعظم ملك منها ، يقول ابن عاشور:" ومعنى { أوتيت من كل شيء } نالت من كل شيء حسن من شؤون الملك . فعموم كل شيء عموم عرفي من جهتين يفسره المقام كما فسر قول سليمان { أوتينا من كل شيء } ، أي أوتيتْ من خصال الملوك ومن ذخائرهم وعددهم وجيوشهم وثراء مملكتهم وزخرفها ونحو ذلك من المحامد والمحاسن "[١] .

ولم تزدهر مملكتها وتصل إلى هذا الوصف الرائق، الذي أشبه في أحرفه وصفَ المُلك الذي كان عليه سليمان عليه السلام إلا بسبب عدلها، الذي لأدّى إلى نماء ورفعة مملكتها حتى أوتيت من كل ما يكون للملوك العظام من الأسباب.

[١]- التحرير والتنوير (ج١٠/ ص٣٤٥).

٢- رجاحة عقلها، وسداد رأيها :

كان لذلك أثر بالغ في حفظ وازدهار مملكتها بين الممالك، ولولا ذلك، ما وصف ملكها وعرشها على لسان الهدهد بالعظيم، ويشعر بذلك رجوع الملأ ورؤوس القوم من رعيتها إلى رأيها، هم لم يخرجوا ابتداء بأي اقتراح، بل أوكلوا الأمر برمّته إليها، وذلك واضح في قولهم كما جاء في القرآن ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النمل).

يقول الشعراوي : " ملكة سبأ - التي استطاعت أن تبرم أمراً تخلى عنه الرجال، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لهن أصالة الرأي"[١].

ويتضح ذلك أيضا فيما جاء على لسانها كما يخبرنا الله عزّ وجلّ ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (النمل)، ويدلّ هذا على مقدار الوعي وقوّة الإدراك لديها بمجريات الأمور، وعلى مدى خبرتها ومعرفتها بنتائج الحروب، وما يكون من تدمير العدوّ لمقدّرات البلاد إذا ما دخل عليها.

٣- غير مستبدّة :

ذلك واضح من ردّة فعلها، عندما ألقي إليها كتاب سليمان عليه السلام، فهي لم تستعجل وتنفرد في اتخاذ أي قرار، بل لجأت إلى مبدأ التشاور مع أهل العلم والعقلاء من قومها، لتخرج بتصور صحيح، تُخرج به مملكتها من الوقوع فيما لا تحمد عقباه، قال تعالى ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (النمل) ، يقول سيد قطب : " ألقت الملكة

[١]- تفسير الشعراوي (ج٢/ص: ٣١٣).

إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب؛ ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم"[١].

٤- حسنة الرعاية والتدبير :

هذه الصفة ما كانت في ملك من الملوك، إلا سلمت مملكته ورعيّته من الأذى، ونجت من سعار الحروب وويلاتها، لذلك ما كان من ملكة سبأ بعد رسالة سليمان عليه السلام لها، وبعد ذلك الاستعراض العسكري – إن صح التعبير- الذي تقدّم به قومها، والذي يشعر بجاهزيّتهم للقتال، إلا أن جنحت إلى أسلوب الملاينة، وإعلان الرغبة بالسِّلم، ومحاولة الدخول في جانب الملاطفة بإرسال هديّة تعلن عن رغبتها في السّلام، وتختبر ماهيّة ذلك الملك الذي أرسل إليها الرسالة، هل هدفه من وراء ذلك الادّعاء، مجرد نيل حظ من حظوظ الدنيا، أم هو كما نصّت رسالته مدافع عن عقيدة التوحيد، فجازفت بتلك الهديّة، علّها تقي نفسها ومملكتها حربا هي في غنى عنها، وهي بذلك مالت إلى طبيعة النساء من حيث كراهية الحروب، والرغبة في الحياة الهادئة.

يقول سيد قطب : " وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التي تكره الحروب والتدمير ، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة ... والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح في دفع القتال . وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدي . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة... "[٢].

٥- سرعة استجابتها للحق :

ذلك واضح في سرعة دخولها في دين سليمان عليه السلام، بعدما تبيّن لها الحق الذي جاء به سليمان، وانّ العلم الذي وصل إليه لا يكون إلا من عند الله تعالى، فعلمت بذلك ما كانت عليه من الضلال، فأسلمت مباشرة، ولم تتردد، ولم ترجع في ذلك إلى أحد، وهذا إن دلّ على شيء، دلّ على قابليّتها للحقّ، وصلاح سريرتها، وأنّ ما كانت عليه من الخير في جاهليتها، هذّب تلك النفس التي بين جنبيها، فقبلت الحقّ وأذعنت له، وهي بذلك لم تنجو بنفسها وقومها من خطر الحرب فقط، بل كانت سببا في نجاتهم من عذاب الله تعالى في الآخرة.

---

[١]- في ظلال القرآن (ج٥/ص ٢٦٤٠).
[٢]- في ظلال القرآن (ج٥/ص ٢٦٤٠).

قال سيد قطب : " ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر، وتدلّ على أنّ سليمان مسخّر له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها { مع سليمان} لا لسليمان، ولكن { لله رب العالمين}"[١] .

المطلب السابع : نبي الله يوسف عليه السلام :

اجتمعت في يوسف عليه السلام مجموعة من الصفات والمناقب التي أهّلته لمنصب القيادة والتمكين في الأرض، فاستحقّ ذلك بفضل الله تعالى أولا، ثمّ بما أولاه الله تعالى من تلك الصفات التي نال بها نصيبا من المُلك، فتمكّن به من الإصلاح في الأرض، وإقامة العدل فيها.

- من صفاته وأسباب تمكينه :

١- آتاه الله تعالى العلم في صغره :
هذا واضح في بداية قصّته، عندما رأى تلك الرؤيا التي تبشّر باجتباء الله تعالى له دون غيره، ففهمها يعقوب عليه السلام، ونهاه أن يقصّها على أحد من إخوته، حتى لا يقع الحسد في قلوبهم قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ (يوسف) يقول سيد طنطاوي : " والمعنى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه - سبحانه - يجتبيك ويختارك لأمور عظام في مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحسَّ ، ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكا سليما ، وتعبر الرؤى تعبيرا صحيحا صادقاً "[٢].

٢- معيّة الله تعالى له عند الابتلاء :
وهذه المعيّة صاحبته في جميع مراحل حياته، ولكنّها تجلّت في ثلاثة مواقف، ظهر فيها فضل الله تعالى وحفظه لنبيّه يوسف عليه السلام.

---

[١]- في ظلال القرآن (ج٥/ص٢٦٤٣).
[٢]- الوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص٢٢٧٧).

وأوّل هذه المواقف : معيّة الله تعالى له عندما ألقي في الجبّ، ويتّضح ذلك في قوله تعالى ليوسف ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (يوسف)، يقول ابن عاشور : " ...فأعلمه بما يدل على أن الله سيخلصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على الذين كادوا له ، وإيذان بأنّه سيؤانسه في وحشة الجب بالوحي والبشارة ، وبأنه سينبئ في المستقبل إخوته بما فعلوه معه ...وذلك يستلزم نجاته وتمكّنه من إخوته لأن الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكّن منهم وأمن من شرهم"[١] .

وثانيها : عندما تعرضت له امرأة العزيز محاولة إغراءه، فثبت يوسف عليه السلام في ذلك الموقف بتثبيت الله تعالى له، وكشف سبحانه عن براءت يوسف فورا أمام العزيز الذي اعتنى به، ليعلم ذاك الأخير عفّة من وثق به وأسكنه بيته، وأنه لم يخطئ عندما قرّر أن يحتفظ بيوسف عنده، قال تعالى مصوّرا معيّته ورعايته ليوسف في هذا الموقف : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (يوسف) ، وقد جاءت بعض التفاسير لتصوّر أنّ يوسف عليه السلام قد همّ بالمعصية كما همت تلك المرأة، وحاشاه وكلا، بل همّه لا يكون إلا فيما يرضي الله تعالى، ولا يصح أن ينسب أحد الخلل إلى نبيّ من أنبياء الله تعالى المعصومين عن مثل هذا القذر، يقول سيد طنطاوي : " والمراد ببرهان ربه هو : ما غرسه الله - تعالى - في قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به"[٢].

[١]- التحرير والتنوير (ج٧/ ص٣١٩).
[٢]- الوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص ٢٢٩٣).

وثالثها : رؤيا الملك التي جعلها الله تعالى سببا في نجاة يوسف عليه السلام، وخروجه من السجن، وقد أرجع يوسف عليه السلام الفضل في ذلك إلى الله تعالى ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ (يوسف).

٣- ثقته بربه :

لم يتزعزع إيمانه وثقته بالله تعالى حتى في أحلك المواقف، فهو دائم التوكل على الله جلّ في علاه، ففي موقف الافتتان والخوف من الفاحشة قال: ﴿ ...قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (يوسف)، وفي السجن لم ينس فضل الله تعالى عليه، مع ما وقع فيه من عقوبة الحبس؛ فقال: ﴿ ...ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ...﴿٣٧﴾ ﴾ (يوسف)، وقال: ﴿ ...ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يوسف)، وقال في أول خطاب له مع إخوته بعدما عرفوه ﴿ ... قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (يوسف)، وكذلك لما اجتمع مع أبيه في أول لقاء بعد الفراق ﴿ ...وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (يوسف).

فنجد حديث يوسف عليه السلام في المواقف كلها، حلوها ومرّها، يعبّر فيه على الدوام عن ثقته بربّه، وشدّة توكّله عليه، فلم تفتر هذه الثقة لا في سرّائه ولا في ضرّائه، فكان عليه السلام جديرا بما أولاه الله تعالى من نعمه.

٤- ثقته بالعلم الذي أنعم الله تعالى به عليه :

هذا واضح في مواطن كثيرة، ولكن أذكر منها ما جرى بينه وبين الملك عندما قال له يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف)، ما قالها إلا ثقة بتلك النعمة التي أولاه الله تعالى إياها، وقد آن أوانها، وجاء حين تفعيلها، وفي ذلك إشارة إلى أن العالم ليس له

أن يكتم علمه الذي رزقه الله إياه، بل عليه أن يعمل به، وأن يظهره حتى ينفع به العباد والبلاد، فيكون بذلك قد أدى زكاته.

وقد تمّ ليوسف عليه السلام ذلك النفع العام، وانتشر الخير بتوليه لذلك المنصب، وارتقائه لخدمة الناس، والقيام على رعاية مصالحهم، فمن أصلح لهذا المكان ممن اجتباه الله تعالى وهداه وعلّمه.

٥- تمكينه في الأرض واتساع ملكه :

مكّن الله تعالى لنبيّه في الأرض على مرحلتين:

أولهما : نشأته في بيت عزيز مصر، وما كان له من الحظوة لديه، فقد كان يرغب في اتخاذه ولدا، فبعدما كان يوسف عليه السلام يعاني ظلمة الجبّ، ويُعرض في الأسواق كسلعة تباع وتشترى، منّ الله تعالى عليه أن جعل له جزءا من الحرّيّة في التصرّف في شؤون نفسه، والسعي في الأرض قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (يوسف).

ثانيهما : وصوله إلى سدّة الملك في مصر، بعدما علم الجميع فضل يوسف عليهم، وارتفاع كعبه بين أهل زمانه في الخُلق والحشمة والعلم، واشتهار ذلك عند القاصي والداني، لم يشكّ أحد من الخلق، ولم ينقل عن أي منهم اعتراض على تقلّد يوسف لزمام الأمور، فهو الذي أنجى الله به مصر من الهلاك بسبب القحط، وهو الذي بشرهم بزوال ذلك بعد مدّة، فهل سيجدون بعد ذلك من هو أفضل منه لتولّي مصالحهم، والقيام على شؤونهم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (يوسف).

لذلك ذكر هذه النعمة يوسف عليه السلام على سبيل الاعتراف بفضل الله تعالى عليه، وشكره على جميع نعمه، فقال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يوسف)، يقول الشوكاني رحمه الله : " من للتبعيض : أي بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكا خاصا، وهو ملك مصر في زمن خاص"[١].

---

[١]- فتح القدير (ج٣/ ص٨١).

المبحث الرابع : نماذج على فساد المَلك، مع ذكر مظاهر طغيانه ، وأسباب فساده.

عرض القرآن الكريم لذكر طائفة من الملوك المفسدين في مقابل ذكره للملوك المقسطين، فأسهب في الحديث عن أفراد منهم، واختصر في الحديث عن آخرين، وربما اكتفى بمجرّد الإشارة ضمنا دون الاختصار فضلا عن الإسهاب عن البقيّة الباقية منهم.

وكما تكلّمت عن الملوك الذين أقاموا العدل في الأرض، فسأتحدّث في المقابل عن أولئك الذين آتاهم الله الملك فأفسدوا في الأرض، مع ما بينهم من تفاوت في الإفساد وشكله، فقد أشار القرآن إلى ثمانية ملوك مفسدين لا أعلم أنه تحدّث عن غيرهم من أهل الفساد ممن حاز الملك فطغى به على العباد، أعرض لذكرهم في هذا المبحث على حسب ورود ذكرهم في القرآن:

١) المفسد الكبير، والملك الذي ادّعى الألوهيّة والربوبية ، فرعون مصر في زمن موسى عليه السلام.
٢) الملك المتجبّر جالوت.
٣) الملك الذي حاجّ ابراهيم في ربّه.
٤) الملك في سورة الكهف، والذي كان يأخذ كلّ سفينة غصبا.
٥) الملك في سورة البروج .
٦) وأخيرا؛ ملك الحبشة أبرهة صاحب الفيل.

المطلب الأول : المفسد الكبير، والملك الذي ادّعى الربوبية ، فرعون مصر في زمن موسى عليه السلام :

قصّة فرعون ملك مصر في زمن موسى عليه السلام قصّة واضحة المعالم، والقرآن لم يتحدّث عن ملك من الملوك بقدر ما تحدّث عن فرعون، فلقد ذكر اسمه في القرآن (٧٤) مرّة في (٢٦) سورة من سور القرآن، جاءت تفاصيل قصّته في ثلاث سور منها، هي: طه والشعراء والقصص، وطال الحديث عن بعض جوانبه في سورة غافر، ثمّ تفرقت التفاصيل في ثنايا السور الأخرى، واكتفت بعض السور بالإشارة إليه دون أيّ تفصيل.

وقد قال ابن منظور في تعريفه لكلمة فرعون :" (فرعن) الفَرْعَنَةُ الكِبْرُ والتَّجَبُّر وفِرْعَوْنُ كل نَبِيٍّ مَلِكُ دَهْره ... وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه من هذا وإنما ترك صرفه في قول بعضهم لأَنه لا سَمِيَّ له كإِبليس ... قال ابن سيده وعندي أَن فرعون هذا العَلَم أَعجميٌّ ولذلك لم يصرف ... وكلُّ عاتٍ فِرْعَوْنٌ والعُتاةُ الفراعنة وقد تَفَرْعَنَ وهو ذو فَرْعَنَة أَي دَهاءٍ وتَكَبُّر ..."[١]

ولهذا جاء كلّ هذا التفصيل لقصّة فرعون لما حوته سيرته السيّئة من صور الفساد والكبر والتّجبّر التي لا تنفكّ أن تتكرر في كلّ زمان، على اختلاف الشخوص وأشكال الفساد، فهو لم يدع وجها من وجوه الفساد وشكلا من أشكاله إلا أبدع وسبق من قبله ومن بعده فيه، وما مِن ملك من الملوك المفسدين الذين ذكرتهم إلا وقد حوت قصّة فرعون صور فساده، ولو لم يكن هنالك من سبقني في الكتابة عنه، فلربما كانت رسالتي هذه كلها في الحديث عن هذا المفسد الكبير.

فلابد من المرور على بعض الجوانب الرئيسة للفساد عنده، لتكتمل فصول هذه الرسالة، وتتضح الغاية من كتابتها ، والله المستعان على ذلك.

- من مظاهر طغيانه وأسباب فساده :

١- الاغترار بالملك :

ولعلّ هذا هو أكبر مظاهر طغيانه وأسباب فساده، إذ لولا الملك الذي أوتيه لما كان هنالك بطانة سيئة ولا ادّعاء للألوهيّة والربوبيّة ولا اضطهاد ولا استعباد ولا إفساد...ولكن الأمر كان، ووقع كل ذلك منه عليه من الله تعالى اللعائن.

[١] - لسان العرب (ج١٣/ص ٣٢٣) بتصرف.

يقول صاحب اللباب :"وقيل من ملك القِبْطَ يسمى فرعون ..."[١]، وجاء في المعجم الوسيط :" (فرعون) لقب ملك مصر في التاريخ القديم ..."[٢].

المهم أن هذا ال(فرعون) قد غرّه ملكه فتجبّر على العباد فاضطهدهم واستعبدهم وأفسد في الأرض، كل ذلك بسبب ملكه وفساد في نفسه، قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الزخرف)، يقول ابن كثير : " يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي}..."[٣].

ويقول الشنقيطي :" وكان من أسباب طغيانه الملك والقوّة ، كما في قوله تعالى؟ : {وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ}(الفجر:١٠)، وقوله : {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ}(القصص:٤)، وقوله عنه : {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِي}(الزخرف:٥١).

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته ، خاطبهم الله بما آل إليه هذا الطغيان ، ثم خاطبهم في أنفسهم محذراً من طغيان القوة {أَءَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ}، حتى لو ادعيتم أنكم أشد قوة من فرعون ، الذي أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فهل أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟..."[٤].

٢- اتخاذ البطانة السيّئة:

لقد أحاط فرعون نفسه بشرذمة فاسدة ما زادته إلا فسادا على فساد، وما كانت إلا مثالا سيّئا على بطانة الملوك، كما يعد هو من أمثلة السوء على فساد الملوك، لذلك نجد حضورهم واجتماعهم حول فرعون واضحاً كما تبيّنه الآيات، فكأنّهم ظلٌّ لا يفارقه، يشيرون عليه بكلِّ سوء، يقول تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾(الأعراف) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾(الأعراف) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ

[١] - اللباب في علوم الكتاب (ج١٧/ص ٢٧٥).
[٢] - إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، (ج٢/ص ٦٨٤).
[٣] - تفسير ابن كثير (ج٤/ص ١٥٧).
[٤] - أضواء البيان (ج٨/ص ٤٢١).

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (يونس) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(الزخرف)، والملأ هم الخلاصة من القوم والآل، يقول ابن كثير :"والملأ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم" [١]، فإذا كان مثل هؤلاء هم خلاصة قوم فرعون، فبئس القوم من كانت هذه خلاصتهم.

يقول محمد أبو زهرة :" ولقد قال تعالى : (ال فرعون) ولم يقل أنجاكم من فرعون ، وذلك لأن آله شيعته ونصراؤه وأعوانه ، وطغاة الدنيا يكون شرهم من أنفسهم أولا ، ومن حاشيتهم ... ثانيا ، فيزينون لهم ظلمهم ، ويسمونه عدلا ويبينون له وجوه الكيد، ويمكرون مكرهم ، فلولا بطانة السوء ما كان السوء ، ولولا حاشية فساق الحكام ما استمكنوا ، وما طغوا فى البلاد ، وكلمة حق من حاشيتهم تقيم عدلا ، وتدفع ظلما"[٢].

٣- ادّعاء الألوهيّة والربوبيّة واستعباد النّاس:

هذا هو ظاهر الآيات في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾(القصص) ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النازعات)، فهل كان يعلن عن ألوهيّته المطلقة؟ أم كان بموضع يعتبر فيه أنّه الوصيّ أو القائم بمقام الإله المنفِّذ لأوامره، لذلك كانت طاعته من طاعة الآلهة؟.

ولكن قد يعترض علينا معترض بأنّ القوم (الملأ) الذين يفترض فيهم أنهم كانوا يعبدون فرعون كما صرّح هو في خطابه لهم كما في الآية السابقة، قالوا له بألسنتهم كما ذكره الله تعالى عنهم، ولم ينكر فرعون هذا القول منهم :﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾(الأعراف)، يقول الشوكاني : " واختلف المفسرون في معنى {وآلهتك } لكون فرعون كان يدعي الربوبية كما في قوله : { ما علمت لكم من إله غيري } وقوله : { أنا ربكم }، فقيل معنى وآلهتك : وطاعتك، وقيل معناه : وعبادتك، ويؤيده

[١] - تفسير ابن كثير (ج٢/ص ٢٧٤).
[٢] - زهرة التفاسير (ص: ٢٢٥).

قراءة علي وابن عباس والضحاك (وإلاهتك) وفي حرف أبي، أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك، وقيل أنه كان يعبد بقرة، وقيل: كان يعبد النجوم، وقيل: كان له أصنام يعبدها قومه تقربا إليه، فنسبت إليه ولهذا قال : { أنا ربكم الأعلى }"[١].

و" قوله (وءالهتك) الجمهور على الجمع، وقرئ بقصر الألف وكسر الهمزة على أنّه مصدرٌ على وزن عبادتك"[٢].

والظاهر أنّه ادّعى الألوهيّة والربوبيّة من باب أنّه يمثّل الآلهة، وله ما لهم من السلطة، وطاعته من طاعتهم، لا أنّه الإله الصِرّفُ لهذا العالم، والقراءة المتواترة بالجمع تؤيد هذا المعنى، لذلك يقول ابن عاشور: " وكان فرعون معدوداً ابنَ الآلهة وقد حلت فيه الإلهية على نحو عقيدة الحلول ، ففرعون هو المنفذ للدين ، وكان يعد إله مصر ، وكانت طاعته طاعة للآلهة كما حكى الله تعالى عنه : { فقال أنا ربكم الأعلى } [النازعات : ٢٤] { ما علمْتُ لكم من إله غيري } [القصص : ٣٨]"[٣].

ويزيد البيان وضوحا قول سيد قطب :" ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تعبد فيها هذه الآلهة . . بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة! وهي بنوة ليست حسية! فلقد كان الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولود من أب وأم بشريين . إنما كانت بنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته . فإذا عبد موسى وقومه رب العالمين ، وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون ، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه..."[٤] .

وأكثرُ المفسِّرين على أنّ ادعاءَهُ كان مرتبطا بآلهة يعبدها، ويستعين بتعبيد الناس لها على طاعته، يقول محمد رشيد رضا : " وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتَرْكِهِ وَآلِهَتِهِ: عَدَمُ عِبَادَتِهِ وَعِبَادَتِهَا"[٥] .

٤- اضطهاد المؤمنين من رعيّته وتعذيبهم والتنكيل بذويهم:

لأنّ فكرة الخروج عن أمره وعبادة آلهته كانت مرفوضة تماما، ولو سمح بوجود مثل ذلك، ولم يمنعه ويرتب على فعله العقوبات المشدّدة والتي تصل إلى حدّ الاستئصال، لتتابع الناس

---

[١] - فتح القدير (ج٢/ص ٣٤٢).
[٢] - العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين(٦١٦ه)، إعراب القراءات الشواذ، دراسة وتحقيق محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م.
[٣] - التحرير والتنوير (ج٥/ص ٤٩٧).
[٤] - في ظلال القرآن (ج٣/ص ٢٧٦).
[٥] - تفسير المنار (ج٩/ص ٦٩).

إلى دين موسى عليه السلام، ولانتهى المطاف بفرعون إلى خسارة تلك الطاعة العمياء التي كان يتعبّد الناس بها.

إذا فالنّتيجة الطبيعية لكل ظالم يخشى على كرسيّه هي محاربة الإصلاح، ومحاولة الإطاحة بكل مصلح، حتى يستمرّ في ظلمه دون أي منغّصات من هنا أو هناك.

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ (إبراهيم)، وقد افتنَّ فرعون في أصناف العذاب التي أوقعها على مؤمني بني إسرائيل، من تذبيح الذكور واستبقاء الإناث لإذلال من تبقى منهم، وصولا إلى إبادة جنسهم.

وقد أتيت بهذه الآية هنا دون غيرها من الآيات المشابهة لها، لفارق عجيب، وهو أنّ العذاب في سورة البقرة والأعراف فصّل بأنّه التذبيح والاستحياء، بينما هنا في سورة إبراهيم زاد نوعا آخر من العذاب بإدخال حرف العطف على الجملة بعد ذكر (العذاب)، لأنّه لو كان الصنفان المذكوران في الآية هما فقط أسلوبا التعذيب، لما كان هناك اضطهاد بعد ذلك للآباء من الذكور، ولا لعجائزهم، وهذا مستبعد، لأن قصّة فرعون ومجيء موسى عليه السلام لينقذ بني إسرائيل بجملتهم، كان لأن العذاب قد شمل جميع طوائف المجتمع الإسرائيلي آنذاك، لذلك قال البيضاوي منبّها إلى هذا المعنى: " {يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم} أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين والمراد بالعذاب ها هنا غير المراد به في سورة البقرة والأعراف لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة ومعطوف عليه بالتذبيح ها هنا، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة"[١].

وقد ورد قتله لأتباعه من آمن منهم بدعوة موسى عليه السلام، فعذابه ليس موجّهاً فقط لقوم موسى، ولكن لكل من آمن من هنا أو هناك، وهذا واضح في قصة استشهاد السحرة بعد إيمانهم بالله تعالى على يد فرعون.

[١] - البيضاوي، عبد الله بن عمر (٦٩١ه)، تفسير البيضاوى، دار الفكر – بيروت،(ج٣/ص ٣٣٩).

٥- الإعلام الفاسد والتدليس وقلب الحقائق:

التأثر بالوسط الشعبي ليس مبتغىً جديداً في العصر الحديث، بل هو امتداد أجيال سبقتنا بمئات السنين، والإعلام أهم أداة حربيّة انتبه لها الأولون، وغفل عنها المسلمون في العصر الحديث دون غيرهم، ولم ينتبهوا إليها إلا متأخرا بعد أن فات الفوت، ولو أنّهم رجعوا لكتاب الله تعالى وأهل العلم فيه، لاستدركوا ذلك، ولتنبهوا إلى أمور أخرى فاتتهم ولا زالت كذلك ما داموا بعيدين عن الافادة منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وقد تنبّه فرعون له في وقت مبكّر- وكذلك الفراعنة في كل زمان-، وعمل على استغلاله بكل الطرق حتى يستعطف الشارع المصري – آنذاك، وما أشبه اليوم بالبارحة-، ويحشد الحراك الشعبي في مواجهة الإصلاح وكل ما فيه صلاح، فيعرض القرآن ذلك في أكثر من آية، ويظهر ذلك التنوّع والتدرّج في الدعاية والإعلام لدى فرعون، ، فمرّة ينمّق القول ويتودد إلى قومه – وهو بداية استمالة الرأي الشعبي إليه - بإظهار ميزات الملك التي حاز عليها حتى تجتمع الأبصار والسمع والقلوب على الانصات لما يقوله هذا المفسد الكبير، وينصرفوا عمن سواه ممن لا شيء بين يديه من ملك الدنيا لتميل بها العيون إليه، فيقول هو أو من ينيبه بذلك : ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ ﴾ (الزخرف)، ولكن عندما استتبت الطاعة له، وصار التأييد الشعبي كلّه بين يديه، تغيّرت نبرة التودد، وتحوّلت إلى البعد المادّي، فبعد أن كان التعبير ب(نادى)، وهو يدل على القرب، أصبح بعد استعلائه وتمكّنه يعلن بأسلوب جديد وهو: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ ﴾(الشعراء)، فتطوّر الإعلام عنده كان بحسب ما يمليه الواقع عليه، ففي البداية أشعر اللفظ بأنه كان من يباشر عملية الإعلام، ثمّ بعد ذلك صارت أشبه بالوظيفة المناطة ببعض رجالاته، وسواء أنادى هو أم نادى غيره، فالنداء مسند إليه بالقول والمعنى، يقول الزمخشري : " جعلهم محلاً لندائه وموقعاً له . والمعنى : أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك ، فأسند

النداء إليه"[١]، ويقول الألوسي : " ويجوز أن يكون إسناد النداء إليه مجازا والمراد أمر بالنداء بذلك في الأسواق والأزقة ومجاميع الناس"[٢] .

٦- التفرّد بالرأي والاغترار به:

من المعلوم بداهة أنّ كلّ طاغية كفرعون، لن يتحمل أن يكون هنالك رأيٌ دون رأيه يحتمل الصواب، فرأيه هو الصواب وإن جانب الصواب وكما يقال في المثل الشعبي :عنزة ولو طارت ، فكيف يستسيغ من تعبّد الناس بزعم أنّه يمثّل الإله في الأرض أن يقبل الرأي فوق رأيه، هذا بعيد عنه كل البعد، فلا بد له من كبت حرّيّة الرأي عند الآخرين، يقول تبارك وتعالى عن صفته هذه وحكاية عنه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾(غافر)، وقد أبدع محمد أبو زهرة وسيد قطب في تفسير هذه الآية، وإظهار هذا الجانب في فرعون؛ فقال أبو زهرة ابتداء : " وأوجب عليهم أن يلغوا عقولهم فى عقله ، ورأيهم فى رأيه ، حتى إنه ليقول لهم:(ما أريكم إلا ما ارى وما اهديكم إلا سبيل الرشاد)"[٣]، ويقول سيد قطب :"{ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد } . .إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً ، وأعتقده نافعاً . وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟!"[٤] .

٧- استخدام الأموال لنشر الفساد:

وهذا هو شأن المفسدين في الأرض على الدوام وفي الأماكن والأزمان، يسخّرون أموالهم للصّدّ عن سبيل الله تعالى، فهي أحد أهمّ أسلحتهم في الكيد لدعوة الحق، ومهما أنفقوا من أموال، واستطاعوا بها تحقيق بعض ما أرادوا، إلا أنّ ذلك إلى اضمحلال، لأنّ كلمة الله هي العليا منذ الأزل وعلى الدوام، قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ

---

[١] - تفسير الكشاف (ج٤/ص ٢٦٠).
[٢] - الألوسي، محمود أبو الفضل (١٢٧٠ه)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (ج٢٥/ص ٨٩).
[٣] - زهرة التفاسير (ص: ٤٧٣٩).
[٤] - في ظلال القرآن (ج٥/ص٣٠٨٠).

ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾

﴾(الأنفال)، هي سنّة الله التي لا تتغيّر ولا تتبدّل.

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام وهو يصف حال فرعون وملئه، وكيف أنّهم اتخذوا ما آتاهم الله تعالى من أموال ونعمٍ في الدنيا للصدّ عن سبيله سبحانه :﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾(يونس)، نعم استخدمها فرعون في كلّ باطل، ألم تر أنّه سخّرها واستعرضها أمام قومه حين جاءتهم دعوة موسى عليه السلام ليصدهم عن الدخول في دينه، فجعل يقارن بينه وبين موسى عليه السلام في ذلك، قال تعالى حكاية عنه في شأن ذلك:﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾(الزخرف)، يقول ابن عادل في تفسيره : "وحاصل الكلام أن فرعون كان يقول : أنا أكثر منه مالاً وجاهاً فوجب أن أكون أفضل منه"[1]، ويقول سيد قطب :" وظاهرٌ أنه كان يوازي بين ما هو فيه من ملك ومن أسورة الذهب التي يحلى بها الملوك ، وبين ما فيه موسى من تجرد من السلطان والزينة!"[2].

فبدل أن يشكر الله تعالى على ما أولاه من نعمه باتباع دعوة الحقّ، سخّرها ليصدّ عنها، فبئس ما فعل، وللأسف فلقد لاقى هذا الأمر صداه في قومه، وحصل ما كان يسعى إليه من منعهم من الاستجابة لدعوة الحق، لذلك قال تعالى بعد ذلك مباشرة : ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الزخرف) ، يقول سيد طنطاوي :" ولا شك أن هذه الأقوال التى تفوه بها فرعون ، تدل على شدة طغيانه ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة

[1] - اللباب في علوم الكتاب (ج١٧/ص ٢٧٩).
[2] - في ظلال القرآن (ج٣/ص ١٣٥٤).

قومه وسفاهتهم وضعفهم"[١]، فكان الإغراق نصيب الجميع، المفسد ومن أطاعه على فساده ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف).

[١] - الوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص: ٣٨٠٤).

المطلب الثاني : الملك المتجبّر جالوت:

جالوت كان ملكا كافرا جبّارا في الأرض، لم يأت ذكره في القرآن إلا في ثلاث آيات من سورة البقرة، "وجالُوتُ اسم رجل أَعجمي لا ينصرف"[١]، ولا أريد الخوض فيما جاء في صفته وحجمه وموقعه ولباسه الحربي، وما إلى ذلك مما امتلأت به كتب التفسير من الروايات الإسرائيليّة، بل أكتفي بالآيات الثلاث وما جاء فيها من مظاهر طغيانه .

- من مظاهر طغيانه وأسباب فساده :

١- اغتصابه للأرض وإجلاؤه لأهلها :
ويتبيّن ذلك من قول الملأ من بني إسرائيل لنبيّ ذاك الزمان أنّهم إنما أخرجوا من أرضهم بالقوّة، وما تركوها، بل أخذت منهم عنوة، قال تعالى : ﴿...قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ﴾ (البقرة: ٢٤٦)، بل زاد في التنكيل بهم أن سبى ذراريهم، فكان ذلك أدعى أن تشتعل النفوس للانتقام، والسعي لاسترداد الحقوق، فقالوا : " أَيُّ دَاعٍ لَنَا يَدْعُونَا إِلَى أَلَّا نُقَاتِلَ وَقَدْ وُجِدَ سَبَبُ الْقِتَالِ، وَهُوَ إِخْرَاجُنَا مِنْ دِيَارِنَا بِإِجْلَاءِ الْعَدُوِّ إِيَّانَا عَنْهَا، وَإِفْرَادِنَا عَنْ أَوْلَادِنَا بِسَبْيِهِ إِيَّاهُمْ وَاسْتِعْبَادِهِ لَهُمْ؟"[٢]، ولا ننسى أنّ النفوس الأبيّة قد جبلت على بغض المعتدي خلافا لمن انتكست فطرته، وجبن طبعه، ورضي بالذل بعد الهوان، فأحبّ جلّاده، بل صار حارسا عليه، أيُّ ذل وعار أشد من هذا ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

٢- اغتراره بملكه وقوّته وكثرة جنوده :
ويفهم ذلك من إقدامه على اغتصاب الارض من أهلها ابتداء، ثمّ التصلّف والجرأة بالدفاع عن المغتصبات إذ أصبحت في نطاق ملكه، ثم تخوّف الطرف الآخر - مع ما يحمله من أسباب للقتال- من مواجهة جالوت خوفا من قوّته وكثرة جنوده ، وهذا الأمر الاخير يظهر فيه حجم

---

[١] - لسان العرب (ج٢/ص ٢١).
[٢] - تفسير المنار (ج٢/ص ٣٧٧).

الخوف الذي أصاب بني إسرائيل حتى خالفوا أمر ملكهم، يبدو جليّا في الآية التالية :﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (البقرة)، وحتى الطائفة الصابرة المؤمنة التي أطاعت أمر طالوت، وصفت جيشه بالكثرة كما في الآية الكريمة ، يقول أبو السعود : " قالوا أي بعض من معه من المؤمنين لبعض: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده؛ أي بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة "[١]، نعم اغترَّ جالوت بقوّته وكثرة جنوده في إيقاع الرعب في قلوب المجاهدين من أعدائه، فكان له ما أراد، يقول سيد قطب : " فأمام الهول الحي ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب"[٢] .

---

[١] - أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت،(ج١/ص ٢٤٣).
[٢] - في ظلال القرآن (ج١/ص ٢٦٣).

المطلب الثالث : الملك الذي حاجّ ابراهيم في ربّه :

جاء ذكره في موضع واحد من سورة البقرة، وهي قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (البقرة).

- من مظاهر طغيانه وأسباب فساده :

١- اغتراره بالملك :
وهذا الاغترار متكرِّر عند كل ملك مفسد في الأرض، فأصل فسادهم رؤيتهم لملكهم لمن تحتهم من الرعية على أنّهم عباد لهم، لأجل ذلك اغترّوا بالملك، فما أغنى عنهم ذلك من الله تعالى من شيء.
وفي شأن هذا الملك جاء لفظ الآية صريحا في بيان سبب محاجّته للنبي إبراهيم عليه السلام وتعنّته في قبول الحق، وهو ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾(البقرة: ٢٥٨)، يقول ابن كثير:" وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة، إلا تجبره، وطول مدته في الملك"[١]، قلت: ليس هنالك إشارة في الآية إلى مدّة ملكه أصلا! فلا يسلّم لابن كثير في ذلك.
ويقول محمد رشيد رضا : "... وَقَوْلُهُ: أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ مَعْنَاهُ: أَنَّ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ الْمُحَاجَّةِ هُوَ إِيتَاءُ اللهِ - تَعَالَى - الْمُلْكَ لَهُ، فَكَانَ مَنْشَأَ إِسْرَافِهِ فِي غُرُورِهِ وَسَبَبَ كِبْرِيَائِهِ وَإِعْجَابِهِ بِقُدْرَتِهِ"[٢] .

٢- ادّعاؤه الألوهيّة:
سبحان الله تعالى، كيف تشابهت قلوبهم، فكانت دعواهم واحدة في مجابهة الحق من عند الله، هذا يدّعي لنفسه الألوهية بطريقة غبيّة ، ثمّ يرث هذا الفكر والغباء من بعده فرعون كما سلف ذكر ذلك في موضعه، وكأن رحمهم في الكفر واحده، نعم إنه إبليس مصدر كلّ شرٍّ على

[١] - تفسير ابن كثير (ج١/ص ٣٨٦).
[٢] - تفسير المنار (ج٣/ص ٣٩).

الأرض، يحمل الكفر من واحد إلى آخر، ومن ملك إلى آخر، لا يفتأ أن يفتن الناس حتى يكون خطيبهم في جهنّم ، أعاذنا الله تعالى منها.

دعوى الألوهيّة واضح في نظرته القاصرة في ابتداء المحاجّة لإبراهيم في دعوته عليه السلام إيّاه إلى عبادة الله تعالى الذي من شأنه تعالى الإحياء والإماتة، فظنّ ذاك المأفون وصدّق كذبه فيما ادّعاه بأنّه هو أيضا يحيي ويميت بما كان له من الملك، بإصداره حكم الموت على أحدهم، ومن ثمّ العفو عن الآخر، فيكون بذا قد أحيا وأمات!- وما أظنُّ هذه الصورة إلا من قبيل الإسرائيليّات- قال تعالى حكاية عنه في ذلك :﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، يقول محمد رشيد رضا معلّقا على ذلك :"...وَكَأَنَّهُ كَانَ قَدْ سَأَلَهُ عَنْ رَبِّهِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ - وَقَدْ كَسَّرَ الْأَصْنَامَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ وَسَفَّهَ أَحْلَامَ عَابِدِيهَا لِأَجْلِهِ - فَأَجَابَ بِهَذَا الْجَوَابِ، فَأَنْكَرَهُ الْمَلِكُ الطَّاغِيَةُ الَّذِي حُكِيَ عَنْهُ ادِّعَاءُ الْأُلُوهِيَّةِ لِنَفْسِهِ وَقَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، أُحْيِي مَنْ أُحْكِمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ بِالْعَفْوِ عَنْهُ، وَأُمِيتُ مَنْ شِئْتُ إِمَاتَتَهُ بِالْأَمْرِ بِقَتْلِهِ، فَدَلَّ جَوَابُهُ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ –"[١].

---

[١] - تفسير المنار (ج٣/ص ٣٩).

المطلب الرابع: الملك في سورة الكهف، والذي كان يأخذ كلّ سفينة غصبا :

جاءت الإشارة إليه في آية واحدة من سورة الكهف وهي قوله تعالى :﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ ﴾(الكهف)، وبالرغم من أنها آية واحدة، إلا أنّ مظهر الفساد واضح في حكمه وملكه.

- من مظاهر طغيانه وأسباب فساده :

✓ سلب أموال الضعفاء اغترارا بقوّته :

وأظنّه السبب الوحيد المذكور في الآية، ولم يأت في السنّة ما يزيد الأمر وضوحا في شأنه أكثر مما ذكر في الآية الكريمة، وعناصر التجبّر لديه واضحة، فإن تأمّلنا في الكلمات (لمساكين، ملك، يأخذ كل سفينة غصبا) لعلمنا أنّ هذا الملك لمّا رأى أنّه لا منافس له بالنظر إلى هؤلاء الضعفة المساكين، فإنه لا رادع له من ظلمهم والاستيلاء على أموالهم، فمن ذا الذي سيحاسبه في الدنيا، فإن قلت: الله تعالى، قلت لك: نعم، ولكنّه لا يؤمن به، ولو آمن لما تجبّر، وهم مع ضعفهم لا يدركون خطر هذا الملك وصنيعه بالسفن الصالحة، لذلك جاء التعبير بكلمة (وراءهم) لتبيّن مدى غفلتهم عنه، يقول ابن عاشور :" ...والوراء : مستعمل في معنى ما ينتظره ويحل به من بعد ، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول كالشيء الذي يكون من وراء المرء لا يشعر به لأنه لا يراه ، كقوله تعالى : { وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً } ، أي وهم غافلون عنه ولو ظفر بهم لأفتك سفينتهم"[١].

[١] - التحرير والتنوير (ج٧/ص ٤٩٥).

المطلب الخامس : الملك صاحب الأخدود الذي حرّق المؤمنين كما في سورة البروج (وجاء التفصيل عنه في السنة المفسّرة للقرآن) :

مجزرة من مجازر عديدة وقعت للمؤمنين على مرّ العصور واختلاف الشخوص والأماكن، وما زالت أمّة الإسلام تعاني من ذلك إلى الآن، وتلك سنّة الله تعالى في عباده المؤمنين، يبتليهم ليجتبيهم ويحسن لهم الأجر، وهذه الواقعة الأليمة التي أتكلّم عنها وقعت في زمن ومكان لم يحدّده القرآن ولا السنّة النبويّة، ولكنّهما سطّرا وخلّدا ذكر هذه المذبحة وذكر شهدائها إلى الأبد، فالله تبارك وتعالى ذكر القاتل والمقتول والصورة التي قتلوا بها، وجزاء من قام بذلك في الآخرة.

قال تعالى يحكي قصّتهم : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ (البروج).

ابتدأت السورة بالقسم بأربعة أمور: بالسماء ذات البروج (أي ذات النجوم والكواكب)[١]، وباليوم الموعود (وهو يوم القيامة)[٢]، وبالشاهد (وهو الله تعالى شاهد على ما يجري في الكون جميعا، مع اختلاف للعلماء في معنى الشاهد)[٣]، وبالمشهود (وهم المؤمنون الذين حرِّقوا بالنار). وليس ذلك إلا لعظم المصيبة بقتل هؤلاء الأبرياء من المؤمنين، الذين لم يكن لهم ذنب إلا أنهم آمنوا بالله ربّ العالمين ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾(البروج).

---

[١] - انظر: نظم الدرر(ج٨/ص ٥٦١) والوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص: ٤٤٧٦).
[٢] - التسهيل لعلوم التنزيل (ج٣/ص ٣٠٢)حيث قال:" واليوم الموعود هو يوم القيامة باتفاق".
[٣] - وقال ابن جزى كما في التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٣٠٢):"ويتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولا يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولا"، وليس هذا مجال البحث فيها هنا، ولكن النفس تطمئن إلى أنّ الشاهد هو الله تعالى، كما نقله البغوي في تفسيره (ج٨/ص ٣٨٢) "وقال سالم بن عبد الله: سألت سعيد بن جبير عن قوله: "وشاهد ومشهود" فقال: الشاهد هو الله..." وكذلك جاء في تفسير ابن كثير (ج٤/ص ٥٩٧)"وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الشاهد الله...".

يقول ابن كثير : " وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها"[١].

وقد استشهد جلّ المفسّرين بالقصّة الواردة في صحيح السنّة، والتي تحكي تفاصيل حكايتهم مع ذلك الملك الطاغية، الذي حرّق المؤمنين بالنار بعدما توعّدهم وتهدّدهم، فلم يُجدِ ذلك فيهم، فتغيظ منهم بسبب إيمانهم بالله تعالى، فتجبّر عليهم وفعل ما فعل، كما ذُكر في القرآن، وورد في الأحاديث الصحيحة.

فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّى قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَىَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِى طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِىَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَىْ بُنَىَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّى. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَىَّ . وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِىَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِى فَقَالَ إِنِّى لاَ أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّى. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِى قَالَ رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِىءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَىْ بُنَىَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ . فَقَالَ إِنِّى لاَ أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِى اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِىءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِىءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِىءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِى إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ

[١]- تفسير ابن كثير (ج٤/ ص٥٩٧).

اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِى قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِى إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِى حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِى عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِى ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ.

ثُمَّ ارْمِنِى فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِى. فَجَمَعَ النَّاسَ فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِى كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِى صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِى صُدْغِهِ فِى مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ.

فَأُتِىَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِى أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِىٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِى فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ »[1].

- من مظاهر طغيان هذا الملك وأسباب فساده :

١- بطانة السوء :

وهذا واضح في بداية قصّته في الحديث الصحيح، حيث أنّه اتخذ ساحرا في بلاطه، ولم يخل مجلسه منه حتى شاخ وكبر، والدليل أنّ الساحر قد طلب من الملك - بعد أن تعلل بكبر سنّه – أن يبعث له بغلام يعلّمه السحر حتى يكون بديلا عنه في حاشية الملك، فقال كما في الحديث :" وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّى قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَىَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ".

٢- ادّعاؤه للربوبيّة :

وهذه الصفة متوارثة بين الجبابرة من الملوك – وقد نوّهت لذلك في موضعه من هذا البحث وكأنّ سقاءهم فيها واحدٌ، فأوّل من ادّعاها – كما يذكره القرآن – الملك الذي حاجّ إبراهيم، ثمّ ورثه فيها فرعون، ثمّ ينتهي الأمر فيها إلى هذا الدّعي الكذاب الأخير، وسبحان الله تعالى، دعواهم واحدة في وجه التوحيد، ومظاهر الطغيان والفساد متشابهة فيما بينهم إلى حدّ كبير.

[1] - مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين القشيري النيسابوري (٢٦١ه)، صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج٤/ص ٢٢٩٩/ رقم ٣٠٠٥) وذكر الشارح في الحاشية معان هذه الكلمات (القرقور : السفينة قيل الصغيرة وقيل الكبيرة، تقاعست : توقفت ولزمت موضعها وامتنعت عن التقدم، الكنانة : وعاء السهام).

وهذا واضح من اعتراضه على أحد جلسائه وقد آمن، فقال له كما في الحديث :" ...فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّى. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِى قَالَ رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ...".

٣- استخدامه عنصر الإرهاب للصدّ عن سبيل الله تعالى :

واستخدمه في محاولة منه لإخافة الغلام علّه أن يرجع عن دينه، فمرّة يأمر به أن يؤخذ إلى قمّة جبل، ثمّ يخيّر أو يرمى من فوقه، ومرّة يأمر به أن يؤخذ إلى عرض البحر ويهدد بالإغراق أو الرجوع إلى ملّة الكفر، وأيضا لمّا أشعل النيران في الأخدود، ما أشعلها ابتداء إلا لتمتلئ قلوب من آمن بالله تعالى بالخوف منها على أنفسهم على أمل أن يرجعوا إلى عبادته هو من دون الله، فمن لم يرجع قذف فيها، وهذا واضح في الحديث الذي ذكرته، ولا حاجة لإعادة ذكر النص هنا.

كل هذه الأساليب وغيرها تبيّن مدى عجز أولئك الطغاة عن إزالة ذلك الإيمان من القلوب، ولربما لو أرادوا إزالة بعض الجبال عن أماكنها لاستطاعوا، ولكن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، لا يزول بل يموت صاحبه وإيمانه في قلبه.

٤- قصر نظره في مآلات الأمور :

فعندما أمر الغلام هذا الغاشية أن يجمع الناس ويقول تلك الكلمات (باسم الله رب الغلام) عند قتله، لم يفكّر هذا الأخير بأنه اعترف صراحة – وهو المدّعي للربوبية- بوجود الله تعالى أمام من استعبدهم من رعيّته، بل كان جلّ اهتمامه منصبّاً على أن يتخلّص من آخر أفراد هذه الفتنة – إن صح التعبير- بالنسبة له، فلم ينتبه أنّه بقتل آخر فرد من هؤلاء الثلاثة يصنع أمّة مؤمنة كإيمانهم، فالغباء مطبق ، بل طمس الله على عقله وقلبه فأنّى له الفهم.

٥- استخدام النشر والتحريق كأداة للقتل والترهيب :

فالحقد والحسد على أهل الحق على الدوام لا يشفيه – كما يزعم الطغاة – إلا دماءهم، أتى بالراهب فخيّره بين الكفر والموت، فاختار لقاء ربّه، فنشره بالمنشار، ثم أتى بجليسه ولم يرتجف فؤاده لهذا الجليس الذي أمضى زمانا معه، بل قتله دون أي شفقة تذكر، وكذلك لمّا عمّ عذابه بالتحريق جميع من آمن من رعيّته – وهم جلّهم -، لم يأبه أو يحزن بكثرة القتل، بل سعى إلى ترهيب وقتل واجتثاث جميع من خرج عن طاعته وعبادته، والزمان والتاريخ يعيد نفسه مع كل طاغية يظهر في كلّ زمان.

المطلب السادس : وأخيرا؛ ملك الحبشة أبرهة صاحب الفيل :

ولعلّ هذا الأخير ذكرا في القرآن هو أقربهم لعهد رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث ولد في ذات العام الذي غزا فيه صاحب الفيل الكعبة، وقد جاءت قصّته مفصّلة في كتب السيرة، كسيرة ابن إسحق وابن هشام[١].

- من مظاهر طغيانه وأسباب فساده :

✓ الكبرُ وحيازة الملك :

فإذا تأملنا في قصّته – كما في السير – وجدنا أنّه ما استكبر وتجرّأ على غزو بيت الله الحرام، إلا انتقاما لنفسه بعد أن أحدث[٢] ذلك العربي من كنانة في كنيسته التي أراد أن يضاهي بها الكعبة، ويصرف – زعما منه – العرب إليها، فأغضبه ذلك، فأقسم على أن يهدم الكعبة، وإنما حمله على ذلك اغتراره بملكه وكثرة جنده وما ملكه من الفيلة الضخمة، كلّ ذلك شكّل دافعا قويّا له على العزم على هدم الكعبة.

ولو أنّه كان ضعيف الملك قليل الجند، لما أمكنه ذلك، ولخشي من قبائل العرب على نفسه ومن معه، لذلك فالمظهر الوحيد لغروره وطغيانه وظنّه أنّه يقدر على هدم الكعبة، هو اغتراره بملكه وما يملكه من الجند، والله تعالى أعلم.

---

[١] - ابن هشام، عبد الملك (٢١٣ه) ، السيرة النبوية، الطبعة الثانية، تحقيق : مصطفى السقى وآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٩٥٥م، (ج١/ص ٤٥).

[٢] - قضى حاجته.

الفصل الثاني: الملأ {وهي بطانة الملك وحاشيته } .

وهي جزء لا يتجزّأ من الملك، فلابد للملك من بطانة وحاشية تعينه على إدارة الحكم، وقد تكون هذه الحاشية فاسدة، فلا تدلّه إلا إلى كلّ سوء، وربّما كانت صالحة، فكانت له عونا على إقامة العدل في مملكته.

قال النبي صلى الله عليه و سلم: " ما استخلف خليفة إلا له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه والمعصوم من عصم الله "[١].

وقال عليه صلى الله عليه وسلم: «إن الله لم يبعث نبيا ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي»[٢].

المبحث الأول : الملأ لغة واصطلاحا .

- أما في اللغة :

قال الفراء : «قوله: {قَالَ الْمَلأُ...}: هم الرجال لا يكون فيهم امرأة. وكذلك القوم، والنَفَر والرّهط»[٣] .

وفي الصحاح : « ... وملأ الرجل: صار مليئا أي ثقة، فهو غنى ملئ ... ابن السكيت: تمالؤوا على الأمر: اجتمعوا عليه. والملأ: الجماعة...»[٤].

أما ابن فارس ؛ فقال في جذر الكلمة : «(ملي) الميم واللام والحرف المعتل. كلمة واحدةٌ هي الزَّمن الطّويل. ...

وإذا هُمِز دلَّ على المساواة والكمال في الشَّيء.

---

[١] - صحيح البخاري (ج٦/ص ٢٤٣٨/رقم٦٢٣٧).

[٢] - الترمذي، محمد بن عيسى (٢٧٩ه)، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي-بيروت. (ج٤/ص ٥٨٣/رقم٢٣٦٩)، وقال : حسن صحيح غريب.

[٣] - الفراء، يحيى بن زياد، (٢٠٧ه)، معانى القرآن، الطبعة الأولى، تحقيق: أحمد النجاتي وآخرون، دار المصرية – مصر، (ج٢/ص ٥٣).

[٤] - الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت٣٩٣هـ)، الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٩٠م،(ج٢/ص ٨٣).

ومَلأْتُ الشّيءَ أملَؤُه مَلْئاً.

والمِلء: الاسم للمِقدار الذي يُملأ؛ وسمِّي لأنَّه مساوٍ لوِعائه في قَدْره. ويقال: أعطِنِي مِلأَه ومِلأَيْهِ وثلاثة أمْلائِه. ومنه أمْلأ النَّزْعَ في القَوس، إذا بالَغَ.

ومنه المَلأ: الأشْراف من الناس، لأنَّهم مُلِئُوا كرماً. ... والمعنى فيه أنَّ حسن الخُلُق من سجايا المَلأ، وهم الشِّراف الكِرام»[1] .

ويقول الأصفهاني :" المَلأُ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملئون العيون رواء ومنظرا، والنّفوس بهاء وجلالا. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ﴾(البقرة: ٢٤٦)، ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ... ﴾(الأعراف: ٦٠)، ﴿ ... قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ... ﴾ (القصص: ٢٠)، ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٢٩)، وغير ذلك من الآيات. يقال: فلان مِلْءُ العيونِ. أي: معظّم عند من رآه، كأنه ملأ عينه من رؤيته، ومنه: قيل شابّ مَالِئُ العينِ «٣» ، والملأ: الخلق المملوء جمالا...ومَالَأْتُهُ: عاونته وصرت من ملئه. أي: جمعه. نحو: شايعته. أي: صرت من شيعته"[2] .

وهكذا نرى مما سبق أن المعنى اللغوي (للملأ) يدور حول الآتي :

١- الجماعة ولا يطلق على الفرد.

٢- محصورة في جماعة الرجال دون النساء.

٣- المساواة والكمال في الشيء.

٤- المعاونة والاجتماع على الأمر.

٥- الثقات من الرجال .

٦- نبه بعض اللغويين إلى أنها تشير أيضا إلى الخُلُق، فكأن الجماعة قد ملئت خُلُقا.

---

[1] - معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج٥/ص ٣٤٦).
[2] - المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٧٦).

إذا نستخلص مما سبق أن معنى الملأ في اللغة : هم الجماعة من الرجال الثقات ليس فيهم امرأة، تساوى أفرادها في الرأي والخلق، تعاونوا واجتمعوا على أمر ما.

- هذا بالنسبة للغة، أما بالنسبة للاصطلاح :

فيقول الزجاج :"الملأ هُمُ الوُجُوهُ، وذوُو الرأي، وإنما سُمُّوا ملأً لأنهم مُلئوا بما يحتاج إليه"[١].

وقال الماتريدي :" الملأ هو اسم لشيئين: اسم الجماعة، واسم الأجلة والأشراف..."[٢].

ويقول في موضع آخر :"وهكذا العادة في الملوك؛ أنهم إذا خاطبوا إنما يخاطبون أعقلهمِ وأعظمهم منزلة عندهم ..."[٣].

وقال البغوي :"والملأ هم الأشراف والرؤساء"[٤].

وقال أبو حيان الأندلسي :"الملأ : الأشراف من الناس ، وهو اسم جمع ، ويجمع على أملاء ...وسموا بذلك لأنهم يملؤون العيون هيبة ، أو المكان إذا حضروه ، أو لأنهم مليئون بما يحتاج إليه"[٥].

ويؤكد ذلك ابن كثير فيقول :"والملأ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم"[٦].

و" قال ابن عرفة: عبر بلفظ الملأ ولم يقل: يا أيها الجند؛ لأن الملأ هم الأشراف، وهو إنما خاطب بذلك من له قوة وعلم، ولفظ الملأ يشمل من جمع الأمرين ومن اتصف بأحدهما، ولم يتناول رعاع النَّاس بوجه"[٧].

وذكر صاحب مجالس التذكير :"وأن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية ..."[١].

---

[١] - الزجاج، إبراهيم بن السري(المتوفى: ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه ،الطبعة الأولى، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ ،م (ج٢/ص ٣٦٤).

[٢] - أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد(المتوفى: ٣٣٣هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، الطبعة الأولى، المحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، (ج٦/ص ١٧٨).

[٣] - تفسير الماتريدي (ج٦/ص ٢٤٦) .

[٤] - تفسير البغوي (ج٤/ص ١٧١)

[٥] - تفسير البحر المحيط (ج٢/ص ١٨٢).

[٦] - تفسير ابن كثير (ج٢/ص ٢٧٤).

[٧] - ابن عرفة، محمد بن محمد أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، تفسير ابن عرفة، الطبعة الأولى، المحقق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،٢٠٠٨ م، (ج٣/ص ٢٥٤)

وأخيرا يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي :"والملأ: هم أشراف القوم، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا، ويقال لهم: " ملأ "؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون، أي: لا ترى العيون غيرهم...."[٢].

وقال في موضع آخر :"...والمراد بذلك هو الحاشية المقربة، أو الدائرة الأولى التي حول المركز، فَحَوْل كل مركز هناك دوائر، والملأ هم الدائرة الأولى..."[٣].

وبعد استعراض هذه التعريفات (للملأ) ، نخرج بما يلي :

١- هم أهل الرأي، ووجوه القوم، وأعضاء مجالس الشورى.

٢- هم الأشراف والرؤساء والقادة والسادة.

٣- هم الدائرة الأولى والحاشية المقربة من صاحب السيادة العليا.

٤- غالبا ما تجتمع فيهم صفة القوة والعلم، أو أحد هاتين الصفتين.

٥- وعادة الملوك أن تكون خطاباتهم موجهة لهم، إذ لا يتناول خطاب الملوك رعاع الناس.

إذا يمكننا أخيرا أن نستخلص مما سبق التعريف الاصطلاحي لكلمة (الملأ) : هم الأشراف والسادة والقادة والرؤساء ، ووجوه القوم وأعيانه، والحاشية المقربة من صاحب السيادة العليا، ذوو الرأي من جمع القوة والعلم أو اتصف بأحدهما ، فهم إذا الدائرة الأولى حول المركز، أهل المشورة والرأي ومن يتناولهم خطاب الملك .

---

[١] - ابن باديس، عبد الحميد محمد(المتوفى: ١٣٥٩هـ)، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، الطبعة الأولى تحقيق :أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. (ص: ٤٠٠).

[٢] - الشعراوي، محمد متولي (١٩٩٨م) تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، (ج١/ص: ١٤٢٦)

[٣] - تفسير الشعراوي (ج١/ص: ١٤٨٧).

المبحث الثاني : الملأ الصالح وأثره في الملك والحكم .

سأتعرّض لذكر الملأ عند اثنين من الملوك الصالحين المسلمين في القرآن، وهما (طالوت وسليمان) ، لذا فإنّ دراسة الملأ الصالح ستكون من خلال قصصهم، ولم أجد بعد البحث ذكراً لملأ داود عليه السلام أو لملأ يوسف وذي القرنين، لذلك فالحديث عن الملأ الصالح سينحصر في قصّة المَلِكين (طالوت وسليمان)، ولعلّ في ذلك كفاية، والله تعالى أعلم.

المطلب الأول : الملأ من قوم الملك طالوت :

المتأمل في الآيات التي وردت في قصة الملك طالوت، يجد أن البحث لن يطول به في الكشف عن قصّة طالوت، وذلك لقلة ما جاء في شأنه من آيات، ومع قصر تلك القصّة في القرآن إلا أن نظام ملكه بدا واضحا جليا، ومن أبرز ما جاء -ابتداء - في نظام ملكه، وذلك في بداية قصته، الإشارة إلى دور الملأ في طلبهم من نبي ذاك الزمان بإيجاد الملك القائد، ظنّا منهم في أن حال الأمة لن ينتقل من الضعف والهوان إلى القوة والرفعة إلا بالقتال بدءا بالدفاع عن أنفسهم وانتهاء إلى بسط نفوذهم (كما حدث متأخرا في مملكة سليمان).

ثمّ كان النبي بعد ذلك مع طالوت، يرجع إليه، ويستنير بهديه، لا يسير إلا بمشورته، وذلك تأييد بالوحي عن طريق المشورة وأخذ الرأي، فالملك والنبوة في عهد طالوت كانا منفصلين.

- أثرهم في ملك وحكم الملك طالوت:

١- إيجاد الملك وإنشاء المملكة:
ولعله من أبرز آثارهم، فقد طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا، وهذا في حد ذاته أول دور لهم في تكوين البذرة الأولى لمملكة جديدة، تكون فيها السيادة لبني إسرائيل، وهذا واضح من خلال الآيتين الأوليين من قصة الملك طالوت[١]، حيث كان التركيز على الملأ منهم لا على النبي – عليه السلام-

"وتنكير (نبيء لهم) للإشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي فلا حاجة إلى تعيينه ، وإنما المقصود حال القوم وهذا دأب القرآن في قصصه"[٢] والملاحظ أن لفظ الملأ أول ما ذكر في

---

[١] - البقرة (٢٤٦-٢٤٧).
[٢] - التحرير والتنوير (ج٢/ص ٤٧٦).

القران في هذا الموضع، وانظر الى عظم التناسب فيه. فأول قصة تحوي نظام الملك جاء فيها ذكر الحاشية (الملأ)، وليس ذلك إلا لعظم أهميتها في صناعة القرار... .

٢- اعتناؤهم بالوحي بما يضمن حسن انتقاء الملك:

وهذا متمثل في ملازمتهم لنبيهم ابتداء وذلك لرسوخ الاعتقاد في قلوبهم – إذ هم الصفوة من قومهم- عبر تلك الحوارات مع نبيهم كما نقلها القرآن بأن الاختيار الأمثل للملك لا يكون إلا من خلال الوحي المتمثل بالنبي يقول محمد سيد طنطاوي :" ألا ترى إلى الملأ من بني إسرائيل كيف لجأوا إلى نبي لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم : { ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله } إنهم لم يلجؤوا إلى زعيم من زعمائهم ، أو إلى أمير من أمرائهم ، وإنما لجأوا إلى نبيهم يبثون إليه شكواهم ، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال في سبيل الله ، لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى ، والعقل السليم ، والخلق القويم ، والأسوة الحسنة"[1] ، هذا مع ما كان يعتري صدورهم من أن يكون أحدهم هو الملك، وهذا واضح جلي من خلال اعتراضهم على أن يكون الملك طالوت، ولكنهم لم يملكوا من أمرهم شيئا بعد أن رأوا أمارات ملكه من الله تعالى إلا أن يذعنوا له، لأن صلاح أمرهم مرتبط باتباعه، "وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك ، وطاعة الملوك أنبياءهم ، وكان الملك هو الذي يسير بالجموع ، والنبي يقيم له أمره ويشير عليه ، يرشده ويأتيه بالخبر من ربه عزّ وجلّ"[2].

٣- معاونة الملك في ساحة المعركة في تثبيت الجند :

وذلك واضح من خلال الآية ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ (البقرة)، فإذا اعتبرنا أن الملأ على قول من قال أنها تعني جماعة بني اسرائيل برمتهم كما قاله الماتريدي وغيره[3]، فالأمر لا يخرج عن كون القلة الصابرة هي من ضمن الملأ ولابد، فهم قومه وجنده وأهل مشورته الحربية أثناء المعركة، وإذا

[1] - الوسيط لسيد طنطاوي (ج١-٣/ص: ٤٦٢).
[2] - الكشف والبيان (ج٢/ص ٢٠٩).
[3] - قال الماتريدي:" الملأ هو اسم لشيئين: اسم الجماعة، واسم الأجلة والأشراف..." تأويلات أهل السنة (ج٦/ص ١٧٨).

كانوا هم الصفوة على المعنى الثاني لكلمة الملأ، فالأمر لن يخرج عن كون ما قيل في تثبيت عزائم الجند والكلام الداعم لموقف الملك والمقول في هذه الآية كان من قبل الملأ، "ولما برزوا أي ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض في موطن الحرب لجالوت وجنوده وشاهدوا ما هم عليه من العَدد والعُدد وأيقنوا انهم غير مطيقين بهم عادة، قالوا أي جميعا عند تقوى قلوب الفريق الأول منهم بقول الفريق الثاني متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ربنا أفرغ علينا صبرا..."[1]، ويقول ابن كثير : " ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد. ولهذا قالوا {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}"[2].

---

[1] - تفسير أبي السعود (ج١/ص ٢٤٤).
[2] - تفسير ابن كثير (ج١/ص ٣٧٣).

المطلب الثاني : الملأ عند النبيّ الملك سليمان عليه السلام :

الملأ عند الملك سليمان عليه السلام مختلف تماماً عن الملأ عند جميع الملوك الذين ذكروا في القرآن، وذلك لارتباط الأمر بدعائه الذي استجابه الله تعالى منه :﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ ﴾(ص)، فنظام الملك عنده لا ينبغي لأحد من بعده، ومن جملة نظامه ذلك الملأ الذي تميّز به عليه السلام، فقد كان ملؤه متنوّع الأجناس، فيه الإنسي والجنّي، متعدّدو المواهب، منهم القويّ الأمين، ومنهم العالم بكتاب الله تعالى، وليس ذلك إلا ليتمّ الله تعالى عليه النّعمة بحيازة الملك من كلّ جوانبه الدنيويّة والتي تتمثّل في القوّة والعلم، يقول الشعراوي :" وهذا يدل على أنه كان في مجلسه أجناس مختلفة، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة، فلو أنهم كانوا متساوين في قدرتهم ما قال:{ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي }.

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن ـ لا جنّاً عاديّاً، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء، ومنهم من هو ذكي، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم، وقال:{ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } ... أما الإنس العادي ـ ممن كان حاضراً مجلس سليمان ـ فلم يتكلم؛ لأن المطلوب ليس في قدرته، أما الذي تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب "[١] ، ولن أخوض في تفاصيل قصّة جلّما جاء فيها- بل كلّه - من الإسرائيليات، ولكن أنبّه على أن بعض المفسرين أشار أنّ الذي كان عنده علم من الكتاب هو نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، وأنّ الأمر رجع إليه بعد أن تكلّم العفريت، أظنّ أنّ ذلك كان باعتبار أنّ سليمان هو أعلمهم بكتاب الله تعالى، وهو ما مال إليه الشعراوي :" أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام"[٢]، وأظن أن الأمر خلاف ذلك، فإنّ موسى عليه السلام وإن كان أعلم أهل زمانه بكتاب الله تعالى، فإنّ الله أعلمه بمن هو أعلم منه، ليذهب موسى إليه ويتعلّم منه، وقصته معلومة مبسوطة عند المفسرين في سورة الكهف، فلا ضير من أنّ الله تعالى سخّر لسليمان عليه السلام من ملئه وجملة جنده من أوتي علما في الكتاب زائدا حتى على الملك النبي والذي يمكّنه من تنفيذ الأمر النبويّ والملكي على هذه السرعة وبهذه الدّقة، فإنّ هذا يعد ضمن مُلك سليمان عليه السلام، وليس خارجا عنه، والله تعالى أعلم.

---

[١] - تفسير الشعراوي (ج١/ص: ١٣٨٠).
[٢] - تفسير الشعراوي (ج٢/ص: ٣١٢٧).

ونقول بعد هذا كلّه؛ إنّ سليمان لم يكن متفرّدا في اتخاذ القرارات، فهو نبيّ يوحى إليه، وهو معصوم كما الأنبياء عليهم السلام، وإن وقع خطأ ما، فإنّ الوحي من عند الله تعالى سيصوّبه، إذا هو ليس بحاجة إلى بطانة ترشده، وتعينه على الحق، فهو معان من عند الله تعالى، لذلك كان دور هذه البطانة وأثرها في ملكه منحصر في :

- التفاني والمسارعة إلى تنفيذ أمره :

وذلك واضح من خلال أسلوب التخيير الذي أملاه سليمان على ملئه حينما أراد أن يأمرهم بأمر، حتى يعلم من هو أفضلهم في تنفيذ هذا الأمر، قال تعالى حكاية عنه : ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(النمل)، وسواء أكان المتنافسون على تنفيذ أمره من الجنّ أو الإنس، فإنّ الأمر قد نفّذ بدقّة وسرعة متناهيتين، يقول الشعراوي :" وقوله:{ رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ }[النمل: ٤٠] كلام يقتضيه سياق القصة، كأن نقول: فأذِن له فذهب وأتى بالعرش، لكن جاء الأسلوب سريعاً ليتناسب مع سرعة الحدث في إحضار عرش بلقيس[١] من مكانه"[٢] ، وهذا ليس لفضل أولئك الأشخاص، ولكن الفضل يعود لله تعالى في تسخيرهم لخدمة سليمان، وتمكينهم من هذا الأمر، يقول الماوردي :" وهذه معجزة لسليمان أجراها الله على يد من اختصه من أوليائه"[٣].

[١] - ولم يثبت أنّ اسم ملكة سبأ بلقيس.
[٢] - تفسير الشعراوي (ج٢/ص: ٢٢٤١).
[٣] - النكت والعيون (ج٤/ص ٢١٤).

المبحث الثالث : الملأ الفاسد وأثره في الملك والحكم .

عند تتبّع ملأ من فسد من الملوك في القرآن، نجد أن كثيرا منهم لم يشر القرآن في قصصهم إلى دور الملأ في حكمهم وقراراتهم، ولعلّ الأمر يرجع إلى قِصر وقلّة الآيات التي تحدّثت عن ملئهم، فالباحث لا يكاد يجد عند التأمّل والبحث أنّ ملأ الملوك الفاسدين قد ذكروا بإسهاب إلا أفسدهم أكثرهم عتوّا في الأرض، ألا وهو الطاغية فرعون.

لذلك سوف أحاول الإلمام بمعظم وجوه الفساد لدى ملئه، وأثر ذلك في الملك والحكم.

المطلب الأول : ملأ فرعون :

هم أسوأ بطانة ملك وجدت على الإطلاق، حازوا أوجه الفساد فلم يتركوا لمن تبعهم من المفسدين إلا أن يقتدوا بهم، فهم على خطا قائدهم درجوا، ومن معينه اغترفوا، وفي اليم غرقا قد اجتمعوا.

وكما أنّ ملكهم وطاغيتهم سبق جميع المفسدين- ممن كان قبله أو بعده- بما يملكه من صور الفساد، فكذلك الحال عند حاشيته وملئه، فكلا الطرفين كان ردءا لصاحبه على الكذب والفساد، وأثرهم وفسادهم واضح من خلال آيات الله تعالى التي تحكي حالهم في مملكتهم التي أفسدوها وأضاعوها بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله كثيرا.

- أثرهم في ملكه ومظاهر فسادهم :

١- عداؤهم القديم مع موسى عليه السلام :

وقع له هذا العداء قبل خروجه إلى مدين فراراً بنفسه منهم، وذلك بعد أن قتل رجلا منهم، وقد سطّرت تلك الحادثة في القرآن، قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص)، وبعيدا عن تفاصيل تلك الحادثة وما جاء في تبيانها عند المفسّرين، فإنّ الذي يعنينا هنا أنّ الملأ من قوم فرعون اجتمعوا على رأي واحد،

وهو الثأر لمقتل القبطي وذلك بأن يقتلوا موسى عليه السلام، قال تعالى :﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (القصص)، يقول ابن عاشور : " وأراد بهم أهل دولة فرعون : فالمعنى : أن أولي الأمر يأتمرون بك ، أي يتشاورون في قتلك . وهذا يقتضي أن القضية رفعت إلى فرعون..."[١].

ويؤكد ذلك لمّا أمر الله تعالى موسى أن يذهب إلى قوم فرعون لدعوتهم للإسلام كما في سورة الشعراء، فتعلل موسى بالخوف من القتل على أيديهم لذلك الذنب الذي لهم عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ (الشعراء)، فدلّ هذا على أنّ الملأ هنا في الآية هم الأشراف من قوم فرعون كما أشار إلى ذلك ابن عاشور وغيره.

ودليل آخر يؤكّد ذلك أيضا، وهو خطاب موسى عليه السلام لفرعون وملئه حينما ذكّره هذا الأخير بالذنب الذي اقترفه، وهو قتله للقبطي، فكان الأمر فعلا قد رفع إلى فرعون، ولذلك ما اجتمع الملأ لقتل موسى حينها إلا عن سابق أمر منه لهم، لذلك قال موسى عليه السلام موجّها قوله لفرعون وملئه :﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الشعراء)، إذا فالعداوة موجودة سلفا بين موسى عليه السلام والقوم الكافرين قبل الرسالة، فازداد الأمر تعقيدا بينهم بمبعثه لهم، فتكبّروا وتجبّروا على أن ينصاعوا لأمره.

---

[١] - التحرير والتنوير (ج١٠/ص ٤٤٧).

٢- استهزاؤهم بآيات الله تعالى :

وهذا واضح ومتمثّل في ردّة فعلهم وتعاملهم مع آياته سبحانه، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الزخرف)، وهذا هو ديدن أهل الكفر في محاربة الحق، فالاستهزاء سلاح من أسلحتهم التي لا تجدي نفعا في وجه الحق، لذلك افتتحت هذه السورة التي ذكر فيها هذا الاستهزاء من موسى عليه السلام وما معه من آيات الله بأنّ هذا هو شأن أهل الكفر عند دعوتهم إلى الحق، الاستهزاء والسخرية ، قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الزخرف)، يقول ابن عاشور: " قد ذكر الله في أول السورة قوله : { وكم أرسلنا من نبيء في الأولين وما يأتيهم من نبيء إلا كانوا به يستهزئون فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومَضى مثل الأولين } [الزخرف : ٦ ٨] . وساق بعد ذلك تذكرة بإبراهيم عليه السلام مع قومه ، وما تفرع على ذلك من أحوال أهل الشرك فلما تقضّى أُتبع بتنظير حال الرّسول صلى الله عليه وسلم مع طغاة قومه واستهزائهم، بحال موسى مع فرعون ومَلَئِهِ ، فإنَّ للمُثل والنظائر شأناً في إبراز الحقائق وتصوير الحالين تصويراً يفضي إلى ترقب ما كان لإحدى الحالتين من عواقبَ أن تلحق أهلَ الحالة الأخرى ، فإن فرعون وملأه تلقّوا موسى بالإسراف في الكُفر وبالاستهزاء به وباستضعافه" [1].

٣- اتّهامهم موسى عليه السلام بالسحر :

وذلك أنّ السحر كان مشهوراً متداولا بين فئات من المجتمع آنذاك، لذلك كانت معجزة موسى عليه السلام أن يأتي بخارقة للعادة، وأن يخرج عن مألوف خدع السحر إلى الحقيقة التي تبهر عقول كل من رآها وخصوصا من كان عالما بها، يقول الألوسي :" وقد ذكر غير واحد أن السحر غالبٌ في زمن موسى عليه السلام فلهذا كانت معجزته ما كانت"[2]، لذلك أراد الملأ من قوم فرعون أن يصرفوا الناس عن التصديق بالمعجزة المرئيّة أمامهم بأن زعموا أنها من أنواع السحر، قال تعالى حكاية عنهم في مواضع عديدة: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:١٠٩)﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (يونس) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ

[1] - التحرير والتنوير (ج١٣/ص ٢٩٨).
[2] - روح المعاني (ج٩/ص ٤٠).

هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾ (طه: ٦٣)﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى ﴾ (القصص: ٣٦)﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾ (الزخرف: ٤٩).

وأراد الله تعالى أن يبيّن حقيقة هذا الادّعاء، ويدفع هذه التهمة عن موسى وهارون عليهما السلام، باستدعاء فرعون للسحرة وأهل الخبرة في هذا الفنّ، حتى يؤيّدوه في ادّعائه، ويصرفوا وجوه الناس عن دعوة موسى عليه السلام، فما كان من أهل الاختصاص إلا أن شهدوا بخبرتهم على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، فشكّل ذلك صدمة عند القوم أن صيّر الله تعالى ما أرادوه من ضمّ السحرة في صفّهم، دليلا وآية أخرى من آياته سبحانه في تأييد موسى عليه السلام في دعوته.

٤- التمسّك بموروث الكفر :

وليس أدلُّ على ذلك من قولهم لما جاءهم موسى عليه السلام بدعوة الحق :﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨ ﴾ (يونس) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ ﴾ (القصص)،

وهذا من أكبر أسباب امتناع الكثير من أقوام الرسل من اتباع الحق ودعوة أنبيائهم، فالخروج عن التقاليد التي ألفها القوم عن آبائهم في عبادة غير الله تعالى كانت من أهمّ العقبات التي تواجه الأنبياء عليهم السلام، لذلك فإن أغلب أقوام الأنبياء تعلّلوا بهذه الحجّة، يقول الفخر الرازي : " واعلم أن حاصل هذا الكلام أنهم قالوا : لا نترك الدين الذي نحن عليه ، لأنا وجدنا آباءنا عليه ، فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار"[١] . ويقول محمد رشيد رضا : " وَتَعْلِيل تَكْذِيبِهِمْ لَهُ بِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنَّ اتِّبَاعَهُ تَحْوِيلٌ لَهُمْ عَنِ التَّقَالِيدِ الْمَوْرُوثَةِ عَنِ الْآبَاءِ..."[٢] .

٥- الاستكبار والإصرار على الكفر :

تكبّرت تلك الأنوف عن الإذعان للحقّ وإن علت آياته، وتلألأت معجزاته، وأعلنت أنّها لم ولن تؤمن لدعوة الحقّ وإن بهرت آياته ومعجزاته العيون والأسماع، وتصدّعت لصدقها القلوب ، فقالوا :﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾ (الأعراف)، قال ابن

[١] - مفاتيح الغيب (ج١٧/ص ١١٤).
[٢] - تفسير المنار (ج١١/ص ٣٨٠).

كثير :" يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك، ولا بما جئت به"[١]، أي مهما أكثرت علينا من الإتيان بالآيات، فإنك إنما تضيّع وقتك مع من أغلق جميع طرق التواصل معك، تحجّرت قلوبهم فرفضوا الحقّ وتنكّروا لأدلّته، يقول محمد رشيد رضا: "(مَهْمَا) اسْمُ شَرْطٍ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ إِنْ تَجِئْنَا بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْآيَاتِ الَّتِي تَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى أَحَقِّيَّةِ دَعْوَتِكَ؛ لِأَجْلِ أَنْ تَسْحَرَنَا بِهَا؛ أَيْ: تَصْرِفَنَا بِهَا - بِدِقَّةٍ وَلُطْفٍ فِي التَّأْثِيرِ - عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ دِينِنَا...- فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُصَدِّقِينَ، وَلَا لِرِسَالَتِكَ بِمُتَّبِعِينَ"[٢].

هم لم يشكّو يوما في صدق موسى عليه السلام، وإنما هو التكبّر والعلو عن قبول الحق، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (النمل)، فجحدت بها ظواهرهم، وامتلأت بواطنهم باليقين على صدق ما جاءت به الآيات من عند الله تعالى، فأيّ خسران بعد هذا، يقول ابن عاشور : " وإنّما جعل تكذيبهم ظلما لأنّه تكذيب ما قامت الأدلّة على صدقه فتكذيبه ظلم للأدلّة بدحضها وعدم إعمالها"[٣] .

٦- قلب الحقائق وتزييفها :

الفاسد المفسد فرعون ليس بحاجة إلى من يفسده، بل صرّح القرآن في مواضع عديدة أنّ فرعون كان السبب في هلاك قومه، فقال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ (هود)﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ (طه)﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الزخرف)، إلى غير ذلك من الآيات التي تخبر عن مدى الضرر الذي لحق بقومه جرّاء اتباعه، وهذا لا يبرّء القوم من فساد الطويّة وسوء السجيّة، فلولا أنهم كانوا كذلك ما كان لفرعون أن يرأسهم أو يتقدّمهم، وما كانوا إذا ندماؤه وأهل مشورته، ولما كان الخطاب موجّها في الغالب إليهم كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الشعراء) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص: ٣٨) ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ

---

[١] - تفسير ابن كثير(ج٢/ص ٢٩٣).
[٢] - تفسير المنار (ج٩/ص ٧٨).
[٣] - التحرير والتنوير (ج٥/ص ٣١١).

﴿ ٣٤ ﴾ (الشعراء)، ومشورتهم ورأيهم فاسد من خلال آيات عديدة منها قوله تعالى حكاية عنهم:﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الأعراف)، فوصفوا موسى عليه السلام بالفساد وهم أهله – الفساد- ومنهم خرج، وما ذلك إلا لأنّ الحقّ الذي جاء به موسى عليه السلام عرّاهم وكشف زيف دعواهم، فأرادوا أن يستتروا بباطلهم بالتحريض على الحق وأهله، يقول ابن عاشور:" فإنهم لمّا رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإفحامَه . وأنه لم يَحرْ جَوَاباً . راموا إيقاظ ذهنه ، وإسعارَ حميته ، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون، ... والاستفهام في قوله : { أتذر موسى } مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه والإنكار على الإبطاء بإتلافهم ..."[1].

٧- الكذب والمخادعة ونكث العهود :

مع أنّ الملأ من قوم فرعون أعلنوا ابتداء أنّهم لن يؤمنوا، إلا أنّهم أرادوا أن يخادعوا موسى عليه السلام، ويحاولوا النجاة مما أصابهم من الرجز في الدنيا، غافلين عمّا ينتظرهم من عذاب الآخرة ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (الأعراف)﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الزخرف)، فهم في الأصل قوم سوء، لم تحو نفوسهم إلا الشر، ولم يضمروا الإيمان مطلقا، ولو أرادوا النجاة لسلكوا مسالكها، يقول ابن عاشور: " فلما كان (إذا) حرفاً يدل على معنى المفاجأة كان فيه معنى الفعل كأنه قيل فاجأوا بالنكث ، أي : بادروا به ولم يؤخروه . وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكث لليمين"[2].

---

[1] - التحرير والتنوير (ج٥/ص ٤٩٦).
[2] - التحرير والتنوير (ج٦/ص ٩).

المطلب الثاني : الملأ من قوم ملكة سبأ :

عند تتبع تلك الآيات التي تتكلّم عن الملأ من قوم ملكة سبأ، لم أجد بدا من أغيّر التقسيم الذي درجت عليه في المبحث، حيث أني وجدت لهم مسلكين في هذا الأمر: مسلك حسن صالح، وآخر فاسد طالح، فكان لابد من توضيح ذلك بترتيب جديد.

- أثرهم الصالح في ملكها :

✓ طاعتهم لوليّ أمرهم في حفظ مملكتهم :

لقد وضع الملأ في موقف صعب لا يحسدون عليه، فمملكتهم تتعرّض لخطر الحرب، والأمر جلل، والجواب لابد أن يكون حاسما، فأيٌّ تصوُّرٍ خاطئ للموضوع، سيصدر عنه قرار لا تحمد عقباه، وهم مع ذلك قد ملّكوا أمرهم امرأة، ومعلوم أنّ المرأة بطبيعتها مسالمة أكثر من الرجل، ومثل هذا القرار المتعلق بالحرب لا يصدر بالعادة إلا عن الرجال الأشداء، وهذا الواقع، فقد كان الملأ من قومها على تشوّق وحماس لخوض غمار هذه الحرب، فهم يرون أنهم أهل لذلك بما أوتوه من قوّة وعتاد وما إلى ذلك مما تقتضيه طبيعة الحروب، ومع ذلك كبحوا جماح أنفسهم، ورجعوا الأمر إلى قائدتهم وملكتهم، وربما كانوا في قرارة أنفسهم يتوقّعون أنها ستجنح للسلم، ومع ذلك ما كان لهم أن يخالفوها، ولكنهم حاولوا بكلامهم عن قوّتهم واستعدادهم الكامل أن يحرّضوها ويدفعوها إلى القتال دفعا، ومع ذلك ركنوا إلى اختيارها ثقة منهم برجاحة عقلها وحسن تدبيرها لمملكتها.

يقول الفخر الرازي: " أما قوله : {قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ} فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات والعدد والمراد بالبأس النجدة والثبات في الحرب ، وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين : أحدهما : إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد ، والآخر قولهم : {وَالامْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ} وفي ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم ، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم"[١]، وقال أبو حيّان في شأن ذلك: " وهو دليل على الطاعة المفرطة"[٢].

[١] - مفاتيح الغيب (ج٢٤/ص ١٦٧).
[٢] - البحر المحيط (ج٧/ص ٧٠).

- مظهر فسادهم :

١- الكفر :

وهذا واضح من صريح لفظ الآية : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل)، قال القرطبي: " قيل: كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس، لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى .وقيل: كانوا مجوسا يعبدون الأنوار"[١]، وقول محمد أبو زهرة: " "كان في هذا العصر أقوام عظموا الشمس لما فيها من دفء ، ومن أشعة تحيى زرعهم ، ولذلك شاعت عبادة الشمس في أهل مصر ، لأنهم أهل زرع ، وفي سبأ، لأنهم أيضا أهل زرع وأهل حدائق غلبا ، فشاعت فيهم عبادة الشمس ضلالا لعقولهم ، وفسادا لتفكيرهم ، واستجابة لدعاة السوء بينهم ، وفعلوا هذه العبادة من دون الله ، أي إنهم عبدوها دون أن يعبدوا خالقها الذى خلقها ...وذلك لاستيلاء الشيطان على قلوبهم..."[٢]، وكل ما نقلته هنا هو مما جاء عند أهل الكتاب مما تناقلته كتب التفسير، وإلا فإن الاكتفاء بالآية وألفاظها ومعاني كلماتها دون الخوض في التفاصيل التي لم تأت من طريق واحد صحيح أسلم وأحكم، وقد نقلت قول القرطبي وأبو زهره، لأنّ الأول جاء بما روي مختصرا، والثاني أعمل عقله في حال أولئك القوم كما توحيه الآيات، فاستنبط هذا الرأي وسطّره، والله تعالى أعلم.

٢- الاعتداد بالقوة :

يتّضح لنا ذلك من إجابتهم لملكتهم عندما كشفت لهم عن مضمون رسالة سليمان عليه السلام﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (النمل: ٣٣)، وكأنهم يعرّضون بالقتال، وهذا يبيّن مقدار اغترارهم بقوّتهم التي كادت أن تكون سببا في عدم دخولهم في دين سليمان عليه السلام، لولا حنكة ملكتهم التي كبحت جماح هذه القوّة، فكانت سببا في نجاتهم جميعا.

---

[١] - تفسير القرطبي (ج١٣/ص ١٨٤).
[٢] - زهرة التفاسير (ص: ٥٤٤٧).

الفصل الثالث : الجند (الركن الأخير من أركان نظام الملك والحكم)

تنبع أهمّيّة هذا الركن الأخير بالنسبة لنظام الملك من حيث أنّه يمثّل السلطة التنفيذيّة واليد العاملة التي يقع على عاتقها تنفيذ تلك الأوامر الملكيّة على أرض الواقع، سواء أكان هذا على المستوى الداخلي أم الخارجي، فلا يتصوّر وجود مملكة من غير جند أو عسكر، فأنّى للأمور فيها أن تنضبط.

ولا يغيب عن الذهن التهديدات الخارجيّة من دول الجوار، فلولا وجود هذه القوّة في نظام الملك، لضاعت الدولة، ولتجاذبتها أيدي الأعداء من كل ناحية، فتمزّقت أركانها وسلبت ثرواتها.

فالجُند هم العسكر والأعوان والأنصار[١] لكلّ ملك، فلا وجود للملك دونهم، كما لا يتصوّر وجودهم من دون قائد، لذلك حوت هذه الرسالة هذا الفصل الأخير لتوضيح ذلك الدور المهم الذي يؤدّيه الجند في تقوية دعائم نظام الملك والحفاظ على أركانه.

المبحث الأوّل : التبعيّة المطلقة :

الجند هم الأعوان والأنصار لكل وليّ أمر، فلا بد لهم من طاعته في المكره والمنشط، ولتباين أحوال الملوك وأولياء الأمور ما بين صلاح وفساد، كان لابد لهذه الطاعة من قيود شرعيّة من باب قوله صلى الله عليه وسلم : " لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"[٢]، فمن كان من أهل الصلاح؛ يأمر به وينهى عن ما يخالفه، وجب على الجند حينها طاعته واتباع أمره دون تردد، ولكن إن كان من أهل البغي، لا يأمر إلا بكلّ شر، ولا ينهى إلا عن كلّ خير، فحينها لا تجب طاعته، بل في طاعته معصية للرحمن، فكيف يطاع مخلوق فيما يغضب الخالق سبحانه، وبفضل الله تعالى لم يخل التاريخ البشريّ من ملوك عظام، يدعون إلى كلّ خير وينهون عن كل شرّ، يحاربون الكفر والشرك أينما كان، ولا يخافون في الله تعالى لومة لائم، وقد ذكرت طرفا من وصفهم وبعض شأنهم في الفصل الأول، كما ذكرت أيضا طرفا من ذلك الجانب المظلم لملوك البغي الذين تعرّض القرآن لذكرهم ، وذمّ ملكهم، وطريقة حكمهم؛ لذلك كان لابد أن نعرض لحال الجند في ممالكهم، وكيف كانت طاعتهم لهم، وهل كان هنالك ثمّة عصيان.

---

[١] - تاج العروس (ج٧/ص ٥٢٤).
[٢] - صحيح مسلم (ج٣/ص ١٤٦٩/رقم ١٨٤٠).

المطلب الأول : تبعيّة محمودة (في الطاعة) :

هي تلك التبعيّة المبنيّة على طاعة الله عزّ وجلّ، وقد جاءت هذه التبعيّة في مثالين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز: تبعيّة وطاعة القلّة القليلة من جند الإيمان للملك طالوت، وتبعيّة ذلك الجيش الجرار المتعدّد الأصناف والمختلف الأجناس للنبيّ الملك سليمان عليه السلام.

ولا شكّ أنّ هذه الطاعة في هاتين الصورتين محمودة، إذ كلا المَلِكين صالحين يقومان بما أمرهما الله تعالى به من إقامة الحقّ والدعوة إليه، فكان لا بد للجنود من التبعيّة المطلقة لهما، فإنما طاعتهما من طاعة الله تعالى.

<u>المثال الأول</u> : القلّة المؤمنة من جنود الملك طالوت :

عندما أجيب بنو إسرائيل في طلبهم للملك وبعث الله تعالى لهم طالوت ملكا، حذّرهم نبيّهم من عدم اتّباعه في قتاله لأعدائهم الذين سلبوا ديارهم، فكأنّ نبيّهم قد توقّع تخاذلهم عن القتال بعد أن طلبوه، فهم من هم من حيث نقض العهود وقسوة القلوب، فكم آذوا موسى عليه السلام وهو النبي الذي أنقذهم الله تعالى على يديه، ألم يقولوا له ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤)، ألم يكن موقفهم بعد أن فلق الله تعالى لهم البحر ورأوا ذلك بأعينهم، فأنجاهم وأغرق عدوّهم وهم ينظرون، فلما انتهوا إلى الطرف الآخر وأتوا على قوم يشركون بالله تعالى ويعكفون على أصنام لهم قالوا ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨)، ومن يعلم طبيعة القوم فلن يستغرب مثل هذا الفعل منهم، وهذا ما كان يعلمه ويتوقّعه نبيّهم وأخبَرُ الناسِ بهم، لذلك قال ما قال.

ولمّا كان لهم ما تمنّوا، وجاءهم الملك كما طلبوا لا كما أرادوا، فقد أرادوه من جملة أشرافهم وملئهم – كما بيّنته في الفصل الأول المبحث الثالث-، فجاء من جملة فقرائهم، والمهمّ في الموضوع، أنّ الملك طالوت قام باختبار الجنود قبل بدء المعركة مع جالوت، ليعلم من يريد القتال ويقدر عليه ممن ليس كذلك، وكان من شأنه ما كان، فلم تثبت معه إلا عصابة من مؤمني الجند وهي القلّة القليلة في خضمّ ذلك الجمع الغفير الذي كان يسير معه.

- صفتها :

هي قلّة مؤمنة تبعيّتها مطلقة للملك طالوت، إذ طاعته من طاعة الله تعالى، وذلك واضح في وصف الله تعالى لهم، حيث يقول سبحانه عنهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

وجاء في قلة عددهم ومقداره حديث صحيح موقوف عن البراء رضي الله عنه يقول فيه:" كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث: أنّ عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر- ولم يجاوز معه إلا مؤمن- بضعة عشر وثلاثمائة "[١]، إذا؛ فأوّل معركة للإسلام تشابهت مع أوّل معركة لبني إسرائيل في عهد الملك طالوت من حيث العدد والنوعيّة، فاشترك الاثنان في النتيجة نفسها، وهي النصر- بإذن الله تعالى- على أعدائهم، والفوز بمعيّة الله تعالى، ففي شأن القلّة المؤمنة الصابرة من جند الملك طالوت قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، وفي القلّة المؤمنة في بدر قال تعالى﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١٩)، فهي تبعيّة محمودة أدّت إلى نتيجة محمودة، وهذا هو نصر الله تعالى يؤتيه عباده المؤمنين.

<u>المثال الثاني</u>: جنود النبي الملك سليمان عليه السلام :

لم يجتمع لأحد من الخلق جيش كجيش سليمان عليه السلام، فقد حوى في جنباته تباينا كبيرا في أجناسه وأصنافه، فالجنّ والإنس والطير كلّها تسير في نظام موحّد لا ينخرم، بل لا يختلط صنف بآخر، ولا يختلف جنس منه مع آخر، توافق تامّ، وتآلف عجيب بين أخلاط يستحيل في العادة أن تأتلف، فسبحان من ألّف بينها، وملّك زمامها لسليمان عليه السلام، قال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل: ١٧)، والمتأمّل في هذه الآية يرى عجبا، فالله عزّ

---

[١] - صحيح البخاري (ج٤/ص ١٤٥٧/ رقم الحديث ٣٧٤١).

وجلّ لم يذكر لفظ الجنود من دون ذكر أجناسهم، فالجند لا يكون في العادة إلا من جنس واحد، و"كُلُّ صِنْفٍ من الخَلْق يقالُ لهم : جُنْدٌ عل حِدَةٍ"[1]، فكيف إذا كانوا جيشا واحدا؟

لو أردنا أن نقرّب الصورة للذهن بما هو كائن في عصرنا الحاضر، لوجدنا أنّ الجيوش تحتوي في صفوفها على كتائب متنوّعة، فمنها كتيبة سلاح المشاة، ومنها كتيبة سلاح المدرّعات، ومنها كتيبة سلاح الطيران...، وكلّها يتمّ تنظيمها بنسق متناغم متآلف، مع اختلاف أنواعها ومهامّها، وذلك متحصّل عن طريق وضع القيادات والكفاءات على رأس كلّ واحدة منها تسير وفق أوامرها، والتي هي بدورها أيضا – القيادات- تتلقى أوامرها ممن هو أعلى منها، هكذا حتى ينتهي الأمر إلى رأس الدولة وصاحب الأمر فيها وهو الملك.

وتلك الكفاءات والقيادات كانت موجودة ولابد في جيش سليمان عليه السلام، وقد أشير إليها في الآية في قوله تعالى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل: ١٧)، وينقل البغوي في تفسيره قول قتادة في ذلك: "قال قتادة: كان على كل صف من جنوده وزعة ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا في المسير، والوازع الحابس، وهو النقيب" [2].

فعلم من ذلك كلّه؛ أنّه ما كان لسليمان عليه السلام أن تطيعه تلك الجحافل من الجيوش المختلفة الأصناف إلا بتسخيرها له من عند الله تعالى، يقول سبحانه في شأن ذلك ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ص)، ولولا ذلك، ما استطاع عليه السلام أن يضبط كلّ هذا الجمع.

وتبعيّة تلك الأصناف المختلفة من جند سليمان عليه السلام له محمودة، سواء أكانت تبعيّة مطلقة نابعة عن إيمان وطاعة، أم كانت تبعيّة مقيّدة تحت المراقبة خوفا من العقاب الدنيوي والأخروي، وقد قال تعالى في شأن ذلك ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ (ص: ٣٨) ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (سبأ: ١٢)، وكلّ ذلك استجابة لدعوة سليمان عليه السلام الذي سأل ربّه عزّ وجل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فكان له ما سأل.

---

[1] - الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٠ه)، كتاب العين، تحقيق : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (ج٦/ص ٨٦).
[2] - تفسير البغوي (ج٦/ص ١٤٩).

ومن أطلق عنان فكره، وتدبُّر في تلك الآيات التي تناولت قصّة النبيّ الملك سليمان عليه السلام وجنوده، سيجد تطوّرا سبق سليمان عليه السلام فيه عصره بالنسبة لنظام جنده ومهامّه، ويتمثّل ذلك في :

١- الانضباط والجاهزية العسكرية الكاملة، وهذا هو جيش سليمان عليه السلام وآلية إدارته لهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل: ١٧)، وهذا الجمع من الجند المتنوع في أجناسه، الهائل في تعداده، يحتاج إلى من ينظمه، فكان لابد من وجود النظام العسكري والانضباط الكامل بين صفوفه، حتى يؤدي جيش سليمان عليه السلام مهمته على أكمل وجه، لذلك قال تعالى (فهم يوزعون) أي" إذا تقدم الأولون وسرعانهم وزعوا، وإذا توقف المتأخرون دفعوا ووزعوا عن الإبطاء. وهكذا يفعل الشُّرَط والوزعة للعساكر"[١] ، "والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم"[٢] ، يقول سيد قطب :" حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره { فهم يوزعون } حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى فهو حشد عسكري منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم"[٣] .

٢- جهاز الاستخبارات الفائق الدقّة في تقاريره، ذو الجاهزيّة العليا في تلقّف الأخبار، يعمل تلقائيّا عند استشعار أي خطر أو خطأ، ويتمثّل هذا الجهاز في الهدهد، هذا الجندي الذي نقل التقرير الدقيق عن حال مملكة سبأ ووصفها ، فلم يترك أيّ وصف يمكن أن يترك أثرا على أرض المعركة إن كانت هنالك معركة، يقول محمد رشيد رضا :" وقد جمع هذا القولُ الذي ألقي إلى سليمان أصولَ الجغرافية السياسية من صفة المكان والأديان ، وصبغة الدولة وثروتها"[٤]، وبسبب صحّة ودقّة هذه الأخبار، دخلت ملكة سبأ وقومها في دين وملك سليمان عليه السلام .

---

[١] - التفسير البسيط (ج١٧/ص ١٨٧).
[٢] - تفسير القرطبي (ج١٣/ص ١٦٧).
[٣] - في ظلال القرآن (ج٥/ص ٣٧٧).
[٤] - التحرير والتنوير (ج١٠/ص ٣٤٦).

المطلب الثاني : تبعيّة مذمومة (في المعصية) :

هي تلك التبعيّة المبنيّة على معصية الله تعالى والكفر بنعمه وآلائه، والتجبّر والتكبّر في الأرض بغير الحقّ، وقد جاءت هذه التبعيّة في أمثلة عديدة في قصص الملوك في القرآن، وقد بسط القول في بعضها واختصر في الآخر، ولعلّنا نبتدئ بما بسط فيه القول من تلك التبعيّة، ثمّ نشير ولو إشارة إلى ما تمّ ذكره مختصرا في القرآن .

المثال الأوّل : جنود فرعون :

اجتمع لفرعون في ملكه زعامة قوميّة، وزعامة دينيّة، فكان يستمدّ قوّته من الدعم الشعبي له، والذي لم يكن ليوجد لولا الاعتقاد السائد لديهم - والذي زرعه فرعون في قلوبهم – بزعامته الدينيّة، فهو يمثّل تلك الآلهة التي عبّدهم إياها، وكانوا من قبله يعبدونها كما يؤكد ذلك القرآن الكريم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ٧٨)، فجاء فرعون فزادهم غيّا إلى غيّهم، أن فرض نفسه كوصيّ عليهم من قبل الآلهة، وأن طاعته من طاعتهم، فنصّب نفسه بجوارها ربّا وإلهاً لهم، فتبعوه في ذلك لخفّة عقولهم وسفاهة أحلامهم ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٤).

صفة هذا الجند :

١- الاستكبار في الأرض وإنكار المعاد، ولقد اغترّوا بقوّتهم وكثرتهم، وبإمهال الله تعالى لهم فاستكبروا، وكفروا بالله تعالى، فأنى لهم الإيمان ببعث أو معاد، قال تعالى : ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾ (القصص: ٣٩).

يقول الألوسي : " واستكبر هو وجنوده: أي رأوا كل من سواهم حقيرا بالإضافة إليهم، ولم يروا العظمة والكبرياء إلا لأنفسهم، فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد في الأرض. الأكثرون على أن المراد في أرض مصر وقيل : المراد بها الجرم المعروف المقابل للسماء، وفي التقييد بها تشنيع عليهم؛ حيث استكبروا فيما هو أسفل الاجرام، وكان

اللائق بهم أن ينظروا إلى محلهم وتسفله فلا يستكبروا بغير الحق؛ أي بغير الاستحقاق لما أن رؤيتهم تلك باطلة، ولا تكون رؤية الكل حقيرا بالإضافة إلى الرائي، ورؤية العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره حقا إلا من الله عز و جل، ومن هنا قال الزمخشري : الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى، وكل مستكبر سواه عز وجل فاستكباره بغير الحق..."[١].

٢- التعبئة العسكريّة الكاملة، والسرعة في طلب الاحتياط – إن صحّ التعبير-، وهذا يبيّن مدى طاعتهم له، وشدّة تأثرهم بدعوى الألوهيّة والربوبيّة عنده، وإلا لكان بالإمكان أن يتخلّف بعضهم هنا أو هناك، ولكن الواضح من الموضوع أنهم كانوا يقدّسون أمره، ويتّبعون رأيه من دون أيِّ نقاش، لذلك ما تخلّف منهم أحد عند ندائه واستنفاره لجميع قوّاته، وذلك واضح ومتصوّر من خلال قوله تعالى﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴿٥٦﴾ ﴾ (الشعراء).

يقول سيد قطب : " وعلم فرعون بخروج بني إسرائيل خلسة ، فأمر بما يسمى « التعبئة العامة » وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ، ليدرك موسى وقومه؛ ويفسد عليهم تدبيرهم؛ وهو لا يعلم أنه تدبير صاحب التدبير!

وانطلق عملاء فرعون يجمعون الجند، ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون ، وبقوة موسى ومن معه وعظم خطرهم ، حتى ليحتاج الملك الإله بزعمه! إلى التعبئة العامة"[٢].

---

[١] - روح المعاني (ج٢٠/ص ٨٢).
[٢] - في ظلال القرآن (ج٥/ص ٣٤٨).

<u>المثال الثاني</u> : جنود ملكة سبأ :

لم يُذكر في القرآن أنّ هنالك جيش كانت قيادته بيد امرأة إلا ملكة سبأ، وهذا واضح من قولهم ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (النمل: ٣٣)، مع أنّ المرأة بتكوينها الجسدي الضعيف، ورأيها الذي يتخلّله ما يتخلّل آراء النساء من غلبه العاطفة على الحكمة، وانشغالهنّ بأنفسهنّ وما يعتريهنّ من اضطراب النفس عند العادة المعهودة عند النساء، كلّ ذلك يمنع المرأة أن تكون مؤهلة لأيّ قيادة عامّة، فكيف بقيادة جيش! ومع ذلك فلقد قدّر الله تعالى ولطف في تسديد رأيها إلى الصواب، وهدايتها إلى الحقّ، فكانت سببا في هداية قومها ونجاتهم من الهلاك، ولا يعني ذلك أنّ هذا دليل على جواز تولّي المرأة قيادة المجتمع، فإنّ هذا الأمر قد حسم في الإسلام بقوله صلى الله عليه وسلّم : " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة "[١].

ولم يذكر الله تعالى لنا كيف وصلت ملكة سبأ للحكم، ولا ماهي تلك المؤهلات التي جعلتها في ذلك الموضع الاستراتيجي، ولكن المتأمّل في الآيات يجد أنّ رجاحة عقلها، وسداد رأيها كان مشهورا لدى قومها، فلعلّ هذا هو سبب اختيارهم لها لتكون ملكتهم، وصاحبة الرأي في كلّ أمر جلل.

فكان من صفة جندها :

الثّقة التّامّة برأيها، وإرجاع الأمور والقرارات النهائيّة والمصيريّة إليها، وما ذلك إلا إشارة إلى أنهم قد علموا ذلك منها من قبل، واختبروه في تجارب أخرى، وإن لم تنقل إلينا أخبارهم بالتفصيل، فالأمر واضح عند تدبّر الآيات، فلن يكل القوم لملكتهم مثل هذا القرار الذي يتوقف عليه بقاء هذه المملكة من عدمها، لمجرّد أن نصّبوها ملكة عليهم، بل لابد أنهم قد عرفوا رجاحة عقلها وسداد رأيها من قبل، فاطمأنّوا لرأيها في مثل هذا الموقف، فكانت تبعيّتهم وطاعتهم لها مطلقة في أشد الظروف خطرا، ووكلوا الأمر برمّته لها بقولهم ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (النمل: ٣٣).

ولربما كانت طاعتهم لها في هذا الشأن سبب نجاتهم، ولكنّهم في المقابل أطاعوها في كلّ شيء، وتبعوها حتّى في عبادة غير الله تعالى، فعبدوا الشمس من دونه سبحانه، وفي هذا تبعيّة مذمومة في المعصية، كادت أن تهلكهم لولا أن أدركتهم دعوة سليمان عليه السلام.

[١] - صحيح البخاري (ج٦/ ص ٢٦٠٠/ برقم٦٦٨٦).

وأمّا بالنّسبة لمن تبقّى من الجند في تلك الممالك الظالمِ مَلِكُها، كمملكة جالوت، والملك الذي حاجّ نبي الله إبراهيم عليه السلام، والملك في سورة الكهف، والملك الذي حرّق المؤمنين كما في سورة البروج، وأبرهة الأشرم، فلم يأت في صفة جنودهم في القرآن الشيء الكثير، إلا أنّ الآيات دلّت على طاعة الجنود المطلقة في المعصية تبعا لتلك الممالك الظالم ملكها، وهذا بيّن وواضح من خلال قتال الجنود خلف جالوت، ومعاونة الظالم على اغتصاب الحقوق كما في شأن الملك في سورة الكهف، والقيام بتحريق المؤمنين من قومهم طاعة لملكهم، وقطع الفيافي والقفار والمسافات الطوال من أجل هدم الكعبة، لا لخطر يتهدّد مملكتهم أو أهليهم إلا انتقاما لملكهم ليس إلا، ذلك كلّه إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على مقدار ما كان عليه أولئك الجند من الطاعة العمياء لملوكهم حتى فيما تدرك العقول المجرّدة بطلانه، وما أشبه اليوم بالأمس، فالتاريخ يعيد نفسه، فما زال هنالك من يظلم ويقتل شعبه في زمننا، وما زالت تلك الجموع من الجنود الذين خلت من قلوبهم الرحمة، وامتلأت بطباع السباع، يطيعون أمر كلّ جبّار عنيد.

وقد يعتذر بعضهم عن الجنود في تلك الممالك المتقدّمة، في أنهم لم تكن لهم دراية بما يدور من حولهم، فكانوا كأداة صمّاء في يد ملكهم، فنردّ عليه : أنّ طويّة نفوسهم كانت فاسدة، لذلك أطاعوا كلّ مفسد، فها هم جنود بعض ملوك هذا الزمان، قد أدركتهم التكنولوجيا العصريّة، وتوسّعت مداركهم كما توسّعت مدارك الناس من حولهم، وزاد التعليم في صفوفهم، وليس فيهم من لا يقرأ ويدرك الحقّ ولو بمقدار قليل، ومع ذلك فطاعتهم مطلقة لملوك الظلم في تقتيل وتشريد شعوبهم وقومهم وأبناء جلدتهم، فشابه حالهم حال جند تلك الممالك القديمة، فلا عذر لأحد في طاعته لمخلوق في الباطل أياً كان شأنه وأياً كانت رتبته، فإنه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[١].

[١] - تقدّم تخريجه (ص٩٨).

المبحث الثاني : نماذج على عدم التبعيّة :

التمرّد العسكري هو واقع عصري، عانى منه الناس كثيرا في وقتنا الحاضر، وأصبح يتردّد على الأسماع بين الحين والآخر، خصوصا ونحن في زمن الحروب والفتن، وهذ الامر ليس جديدا على الناس، فقد شهدت البشريّة مثل هذا العصيان والتمرّد على القرارات الرئاسية منذ القدم كما سيتّضح من خلال هذا المبحث، فما كان منها تمرّد على أوامر الحقّ فهو مذموم، وما كان تمرّد وعصيان في وجه كل ما يخالف أمر الله تعالى فهو محمود ممدوح.

المطلب الأوّل : عدم تبعيّة محمود :

هنالك عقول أدركت الحق قبل ضياعه منها، وعلمت الباطل قبل أو بعد التلبّس فيه، فخلعت رداء العبوديّة لغير الله تعالى، وتركت كلّ أمر خالف أمره، ولم تأبه لما أصابها في سبيل الله، فإنها بإيمانها تعلم أنّ الله يتولّى من تولّاه.

مثال هذا العصيان المحمود والذي لم يذكر غيره في القرآن (خروج السحرة عن طاعة فرعون) :

معلوم أنّ زمن فرعون كان يضجّ بالسحر وفنونه، فجاءهم موسى عليه السلام بالمعجزة الحقيقيّة والتي تخالف كلّ خداع سحريّ، فقام الهالك فرعون بمجابهة موسى عليه السلام بنوع خاص من الجنود (السحرة)، ظنّا منه أنّه ربّما شتّت نور الحقّ الذي جاء به موسى عليه السلام فبهر قلوب وعقول من تأثر بمعجزته، ومعلوم أنّ كلّ فنٍّ له أهله المختصّون به، والذين يميّزونه عن غيره، فهم أهل الخبرة والاختصاص في ذلك، وكعادة فرعون في أسلوب التعبئة العسكريّة قال تعالى في ذلك ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأعراف)

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾ (يونس: ٧٩) ، لم يرض فرعون بساحر أو اثنين، بل أراد أن يُلقِي بكل ثقله في ساحة المعركة، لأنّها ستكون معركة حاسمة وفاصلة في الخصومة والمناظرة، وعلم ذلك الهالك أنّه إن غلب فيها فلن تقوم له حجّة بعد ذلك فيما يدّعيه، وستكون الغلبة والنصر من نصيب نبي الله موسى عليه السلام.

وجاء الموعد المنشود، وألقى السحرة كلّ ما في جعبتهم وإمكانهم من فنون السحر، فكانت المفاجأة من نصيبهم، في أنّ الذي تحدّوه ليس إلا نبيٌّ كريم، وما جاء به لا يستطيعه أيُّ مخلوق من العالمين، بل هو من صنع الإله الحقّ ربُّ السماوات والأرضين، فلم تستطع قلوبهم المظلمة إلا أن تنير بما جاءها من سواطع الحق ونوره، ولم يملكوا التكلّم بدايةً، بل وقع ما كان أبلغ من حديث اللسان، إنها العبوديّة لله تعالى، لم تستطع تلك الأجساد الضعيفة أن تمتلك جوارحها، أو أن تخفي انكسارها أمام عزّة الله تعالى، فوقعت ساجدة لله سبحانه، موحّدة له لا شريك له أمام أعظم ملحد وكافر عرفته البشريّة في ذلك الوقت، نعم لم يستطيعوا أن يكتموا إيمانهم، ولا أن يداروا خضوع جوارحهم للحق، فسارعوا إلى مرضاته، فكان لهم ما تمنّوا.

فما كان من ذلك الطاغية الذي خسر هذه الجولة من المعركة خسارة فادحة، فقد خسر المعركة وجنوده فيها، إلا أن يرعد ويزبد، ويتوعّد ويتهدّد أولئك المؤمنين الجدد، وقد قال تعالى في شأنهم ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ (طه) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الشعراء).

يقول ابن كثير مصوّرا تلك الحادثة، مبيّنا كيف انخلع أولئك السحرة من طاعة ملكهم الطاغية وقائدهم في تلك المعركة: " فكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن الذي استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، غلبوا وخضعوا، وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، سجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ... فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك إنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله

له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون ... كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا علي في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم فإذني أنا الحاكم المطاع {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا {لا ضَيْرَ} أي لا حرج، ولا يضرنا ذلك، ولا نبالي به ... المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم"[١].

فهم بذلك يعدّون مثالا يحتذى به في الخروج على طاعة كل متجبّر لا يؤمن بيوم الحساب، فترك طاعته في المعصية، طاعة لله تعالى، وتلك هي العبوديّة الحقّ.

المطلب الثاني : عدم تبعيّة مذموم :

وكما أنّ هنالك عقول قد علمت الحقّ واتبعته وأذعنت له، فكذلك هنالك صنف من العقول والشخوص فرّط في الحقِ بعدما جاءه، فأضاع حظَّه من طاعة الله تعالى.

مثال هذا العصيان المذموم في القرآن (الأغلبيّة من جنود طالوت) :

قصّ علينا القرآن قصّة الملك طالوت في سورة البقرة، وكيف كانت معاناة نبيّهم مع بني إسرائيل ابتداء في تحديد هويّة ذلك الملك، وكيف تعنّتوا بعدما علموا أنّ ملكهم من عامّة الناس وليس من أشرافهم، ولكنّهم رضخوا بعدما رأوا الآيات الدالّة على ملكه، والتي أخبرهم عنها نبيهم في ذاك الزمان.

وعلى الرغم من علمهم بأن مُلكَ طالوت واختياره من قبل نبيهم إنما كان من عند الله تعالى، وأنّ الله تعالى يحفظ من اختاره وتولّاه؛ رسب معظمهم في الامتحان الأول لهم على الطاعة، وخالفوا

[١] - تفسير ابن كثير (ج٣/ص ٤٠٧).

أمر طالوت في ترك الشرب من النهر قبل المعركة، ومن ثمّ تقاعسوا عن مواجهة جالوت وجنوده، فانتُقِضَت تبعيّتهم لطالوت، وخلعوا يد طاعته من رقابهم في أصعب المواقف خطرا، قبيل المعركة، ومثل هذا الصنيع قد يؤدي إلى فناء من تبقّى منهم، وضياع ملكهم ودولتهم إلى الأبد، ولكنّ الله سلّم ولطف، ونصر عباده المؤمنين، فلماذا يا ترى وقع هذا الأمر المستشنع منهم ؟

إنّ طبائع تلك الفئة من الناس (اليهود) قد اعتادت على أسوأ الأخلاق، وقد ذمّ الله تعالى جملة من تصرّفاتهم وأخلاقهم مع أنبيائهم ومع ما جاءهم من الحقّ على مرّ العصور، ومن جملة ما ورد من صفاتهم وطبائعهم في القرآن :

١- الغدر والخيانة حتى صار سمة لهم.
٢- نقضهم للعهود.
٣- قسوة قلوبهم.
٤- الكفر بآيات الله تعالى مرارا وتكرارا.
٥- قتلهم أنبياء الله تعالى بغير حق.
٦- الصد عن سبيل الله تعالى.
٧- أخذهم الربا والتعامل به، مع نهيهم عنه.
٨- أكلهم أموال الناس بالباطل.
٩- تفرّق قلوبهم، واختلافهم فيما بينهم.
١٠- تحريفهم لكلام الله تعالى وأوامره.

فبعد هذا الكمّ الهائل من أرذل الطبائع وأسوأ الأخلاق لا يستغرب منهم ذلك العصيان، فهم أهل العصيان أصلاً، فلذلك كانت النتيجة طبيعيّة بانسحاب أكثرهم من طاعة الملك طالوت، وقد توقّع نبيّهم ذلك مسبقا لما يعلمه من صفات القوم وطبيعتهم، وما زالت البشرية على العموم، وأمّة الإسلام على الخصوص تعاني منهم إلى اليوم، بل قد انتقلت العدوى منهم إلى بعض من تعاون معهم من المسلمين، فدبّت مثل هذه التصرفات فيما بيننا، ولم تكن من قبل من صفاتنا ولا من ديننا، ولكنّه التطبيع على جميع المستويات، أعاذنا الله تعالى منه ومن سيّء الأخلاق وشماتة الأعداء، إنه مجيب الدعاء.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد :

فقد خلص الباحث بعد دراسة نظام الملك في القصص القرآني؛ أنّه لابد من توفّر صفات إيجابيّة في الملك والحاكم، حتى يكون صالحا ومؤهلا للحكم وإقامة العدل بين الرعيّة، ومن هذه الصفات الإيجابيّة التي وردت في هذه الرسالة فيمن تولى الملك :

١- أن يكون صاحب طاعة وعبادة وصلاح.
٢- عالم بما يصلح شؤون رعيّته ودولته.
٣- ذو منطق حكيم، ولسان سليم من الآفات.
٤- فطن ذكي، ذو فهم واسع.
٥- حليم صاحب أناة وتؤده.
٦- صاحب بطانة صالحة.
٧- قريب من رعيّته، يسمع من الضعيف قبل القوي.
٨- يجمع بين قوة القلب والبدن.
٩- يقيم العدل في جميع أحواله، حتى عند الغضب.
١٠- صاحب حزم في إدارة دولته وجنده إذا لزم الأمر.
١١- عقوبته للتربية والتهذيب لا التعذيب.
١٢- مهمّته إقامة الحقّ، ونشر العدل بين الناس.
١٣- بناء الجيش، وتهيئة عتاده وسلاحه، وتصفيته من الضعفة.
١٤- القيام بواجب الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام، وإصلاح الأرض.
١٥- حماية الأوطان، واسترجاع ما سلب منها.
١٦- عمارة الأرض، وسياسة الحياة المدنيّة بالشرع.

وفي المقابل، هنالك بعض الصفات التي لابد لمن تولّى سُدّة المُلك أن يتجنّبها، لأنّ فيها فساد دينه ودنياه، وضياع مُلكه، طال الزمان به أم قصر، ومن هذه الصفات السلبيّة :

١- الاغترار بالملك والقوّة وكثرة الجند.
٢- الاستكبار عن الحقّ، والتمسّك بموروث الكفر.
٣- استخدام أسلوب الكذب والمخادعة في الحوار.
٤- اتخاذ البطانة الفاسدة.
٥- استعباد الناس، وهضم حقوقهم.
٦- الاضطهاد والتهديد والتعذيب لكلّ مخالف.
٧- النظرة القاصرة والغباء المطبق في إدراك الأمور.
٨- اتخاذ الإعلام الفاسد لقلب الحقائق، والتدليس على الرعيّة.
٩- سلب أموال الناس بالباطل.
١٠- استخدام الأموال لنشر الفساد في الأرض.
١١- استخدام مبدأ الرشوة في سبيل منع الحق.
١٢- اغتصاب الأرض من أصحابها.

الملأ والجند تبع للملك في ذلك، فإن كان صالحا، أقام له بطانة صالحة، لا تأمره إلا بكلّ خير، وتبع ذلك حسن اختياره لجنده ومعسكره، فتتكوّن بذلك نواة نظام مُلكٍ قائم على الصلاح والإصلاح.

وإن كان الملك فاسدا، فكل من دونه في مؤسسة المُلك على شاكلته، ومن شذّ منهم عنه، خرج من دائرة ملكه.

فصلاح المُلك وفساده متعلّق بالرأس ومنوط به، إذا صَلُحَ صَلُحت رعيّته، وإذا فَسُد فَسُدَت رعيّته، لذلك ذكر الله تعالى نماذج الملك في القرآن، وأطال في تفصيل كثير منها، حتى لا يبقى بعد ذلك أيّ عذر لمن تولّى أمر المسلمين فجار عليهم، وفتك بهم، وأفسد ولم يصلح.

أسأل الله تعالى في علاه أن يصلح ولاة أمور المسلمين، وأن يرهم الحقّ حقّا ويرزقهم اتّباعه، ويرهم الباطل باطلا ويرزقهم اجتنابه.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلى الله على سيّدنا محمد، وآله وصحبه وسلّم.

فهرس المراجع والمصادر

إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٢٧هـ)، **تفسير القران العظيم**، الطبعة الثالثة، تحقيق : أسعد محمد الطيّب، مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة السعوديّة، ١٤١٩ه

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، الطبعة الثالثة المكتب الإسلامي – بيروت، ، ١٤٠٤ه .

ابن باديس، عبد الحميد محمد(ت ١٣٥٩هـ)، **تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)**، الطبعة الأولى تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ)، **النبوات**، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ)، **منهاج السنة النبوية**، الطبعة الأولى، تحقيق : محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة،١٤٠٦ه.

ابن جزي، محمد بن أحمد، (ت ٧٤١هـ)، **التسهيل لعلوم التنزيل**، الطبعة الأولى، تحقيق : عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ١٤١٦ه.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، **فتح الباري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية).

ابن حبان، محمد بن حبان (ت ٣٥٤هـ)، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ - ١٩٩٣.

ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ)، **مسند أحمد بن حنبل**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثانية ، سنة ٢٠٠٨م.

ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٠٣هـ) **حجة القراءات**، الطبعة الثانية، تحقيق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة – بيروت،١٤٠٢ – ١٩٨٢.

ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ) **المصنف**، الطبعة الأولى ، تحقيق: حمد الجمعة، ومحمد اللّحيدان، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م

ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي (ت ٦٧٥-٧٧٥هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م.

ابن عاشور، محمد الطاهر(ت ١٣٩٣هـ)، ، **التحرير والتنوير** ، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

ابن عرفة، محمد بن محمد أبو عبد الله (ت ٨٠٣هـ)، **تفسير ابن عرفة**، الطبعة الأولى، المحقق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،٢٠٠٨م.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت ٥٤١هـ) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، الطبعة الأولى، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

ابن قدامة، عبد الله بن أحمد (ت ٦٢٠هـ) **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، الطبعة الأولى، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٥.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت ٧٧٤هـ) **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، طبعة سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٣هـ) ، **السيرة النبوية**، الطبعة الثانية، تحقيق : مصطفى السقى وآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٩٥٥م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت ٩٨٢هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

أبو بكر النيسابوري، أحمد بن الحسين بن مِهْران (ت ٣٨١هـ)، **المبسوط في القراءات العشر** تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، مجمع اللغة العربية – دمشق، عام النشر: ١٩٨١ م.

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ)، **تفسير البحر المحيط**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

أبو زهرة، محمد، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي.

أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد(ت ٣٣٣هـ)، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، الطبعة الأولى، المحقق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

الألباني، محمد ناصر الدين(ت ١٤٠٨هـ)، **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، الطبعة الثالثة، دمشق- المكتب الإسلامي.

الألوسي، محمود أبو الفضل (ت ١٢٧٠هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، **الجامع الصحيح المختصر**، الطبعة الثالثة، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت،١٤٠٧ – ١٩٨٧.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (ت ٥١٦ هـ) **معالم التنزيل**، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر (ت ٨٨٥هـ) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .

البيضاوي، عبد الله بن عمر (ت ٦٩١هـ)، **تفسير البيضاوي**، دار الفكر – بيروت.

الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ)، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد (ت ٤٢٧هـ)، **الكشف والبيان**، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت ٣٩٣هـ)، **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)**، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٩٠م.

الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، **ميزان الاعتدال** ، تحقيق: علي محمد البجاوي المجلد الاول، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان.

الرازي، فخر الدين (ت ٦٠٦هـ) **مفاتيح الغيب**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م .

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، الطبعة الأولى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٤١٢ ه.

الزبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق (ت ١٢٠٥هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار الهداية.

الزجاج، إبراهيم بن السري (ت ٣١١هـ)، **معاني القرآن وإعرابه** ،الطبعة الأولى، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد (ت ٣٧٣هـ)، **بحر العلوم**، تحقيق: .محمود مطرحي، دار الفكر – بيروت.

سيد قطب (١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م)،**في ظلال القران**، الطبعة الرابعة والثلاثون، القاهرة-دار الشروق.

السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين (ت ٩١١هـ)، **الدر المنثور**، دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٣.

الشعراوي، محمد متولي (١٩٩٨) **تفسير الشعراوي**، مطابع أخبار اليوم.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، (ت ١٣٩٣هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر، بيروت – لبنان،١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ مـ.

الشوكاني، محمد بن علي ،(ت ١٢٥٠هـ) **فتح القدير**، دار المعرفة، الطبعة الرابعة سنة ١٤٢٨-٢٠٠٧م .

الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد (ت ٦٤٣هـ)، **الأحاديث المختارة**، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ه، تحقيق : عبد الملك الدهيش، بيروت-لبنان، دار خضر للطباعة

الطبراني، سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ)، **المعجم الأوسط**، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥

طنطاوي، محمد سيد (ت ١٤٣١هـ)،**التفسير الوسيط**، الطبعة الأولى، الفجالة- القاهرة، دار النهضة.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ)،**الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة-القاهرة.

العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين(ت ٦١٦هـ)، **إعراب القراءات الشواذ**، دراسة وتحقيق محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م.

الفراء، يحيى بن زياد، (ت ٢٠٧هـ)، **معانى القرآن**، الطبعة الأولى، تحقيق: أحمد النجاتي وآخرون، دار المصرية – مصر.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ)، **كتاب العين**، تحقيق :.مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت ٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، الطبعة: الثانية ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

القمي النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد (ت ٨٥٠هـ)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان،** الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤هـ) **الكليات**، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ)، **النكت والعيون**، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان .

محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (ت ٦٦٦هـ) ، **مختار الصحاح**، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

محمد بن علي بن محمد بن الحسن الرحب(ت ٥٧٧هـ)، **الرحبية في علم الفرائض بشرح المارديني وحاشية البقري**، دار القلم-دمشق، الطبعة الثامنة سنة ١٤١٩ - -١٩٩٨م.

محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.

محمد خير رمضان يوسف،(١٤١٥هـ -١٩٩٤م)، **ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح**، الطبعة الثانية، دمشق، دار القلم.

محمد رشيد رضا،(ت ١٣٥٤هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٩٠م).

مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت .

مطبقاني، مازن بن صلاح، **النظام السياسي في الإسلام**، رسالة جامعية، جامعة الملك سعود، الرياض – السعودية.

مكي بن أبي طالب، أبو محمد المالكي (ت ٤٣٧هـ)، **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**، الطبعة الأولى، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، **سنن النسائي الكبرى**، الطبعة الأولى، تحقيق : عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

الواحدي، علي بن أحمد ،(ت ٤٦٨هـ) **التفسير البسيط**، جامعة الإمام محمد بن سعود في المملكة السعودية، رسائل جامعية، تحقيق سليمان بن إبراهيم الحصين، طبعة سنة ١٤٣٠هـ.

MAIN SYSTEM FOR OBJECTIVE STUDY OF THE QURANIC STORIES

By
Majdi suleiman rizk jaber

Supervisor
Dr. Ahmad shukri shapsog, prof

ABSTRACT

This message deals with the study of "King system in the Quranic stories" objective study; and track the approach taken by the Koran in his portrayal of this system, and show those pillars that King system consists of them as an integrated enterprise judgment, not based solely on their existence, they are doing, and to ensure the continuity basis, then Remember the message of those models that hit him and said in the Koran, and the manifestations of validity and corruption, and then finally to get rid of the most important findings and recommendations.